مقولات أهل الكتاب والفكر القرآني

تأليف
سيد أحمد محسب مرسي

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

مقولات أهل الكتاب
والفكر القرآني

مقولات أهل الكتاب والفكر القرآني

تأليف

سيد أحمد محسب مرسي

المكتبة الثقافية
بيروت

طبعة أولى ــ صف جديد
١٤٠٨ هـ ــ ١٩٨٨ م

تقديم

نقدم هذا الكتاب الى الذين يريدون أن يدركوا المعطيات الأولية لما نزل به القرآن في شأن المشكلات الانسانية التي تتصل بالأعراق والأجناس وما حاولت العنصريات أن تقدمه بديلاً لما جاء بالفطرة وحرية الانسان والمساواة التي لا يعرفها المتطرفون ولا الماديون ولا كل من نشأ على هوى الغرائز.

هذه القضية التي سوف نكتب عنها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً لا بد أن تكون من الأهمية لأن الآثار المدمرة في الحروب التاريخية انما نتجت عن تلك المسألة التي ضربت بجذورها التاريخية في اليهودية ثم راح ضحية تلك العقيدة ملك اليهود مرتين : الأولى على يد الرومان ، والثانية على يد الفرس. وما أدراك ربما لا يستمر سلطانهم الحديث أيضاً.

ويا هول ما لاقت الشعوب في الحربين العالميتين على يدي الفاشية والنازية وغيرهما من العقائد التي تنبني أصلاً على يد فكرة العنصر والعرق وارتفاع النسب على باقي الشعوب الأخرى. ولو حلّل العقل تلك الظاهرة الذهنية لوجد مردّها أصلاً الى محبة وعشق الانسان للمادية والقوة التي تصاحبها وما يتبع ذلك من بزوغ عصور الطغيان وشعور الغلبة وسطوة القهر وشهوة التعالي ومجلبة الحروب المدمرة.

هذه الأطروحة التي بين يدينا يغفل الناس عن خطورتها لأن الأسباب

الاقتصادية البادية للعيان تخفي وراءها العقائد الشعوبية التي تأصلت في الفكر الأممي وهي دائماً تتخفّى في ثوب الظواهر المادية ، وكذلك كان لا بدّ من كشف العلة الفاعلة المستمرة في التأثير الباطني للأفراد والجماعات دون وعي لما يحدث في تلك العقول الجماعية التي يتحدث عنها «يونج» ويشير من خلال عملها أنها المسئول الأول عن تشكيل التاريخ الانساني وأنه دورات للأفكار العرقية الموروثة.

نحن نعلم أن الماديين يفسرون التاريخ من خلال الآلة والتكنولوجيا وأسباب النمو الاقتصادي ، ويرون أن التاريخ ما هو إلا محصلة لما يبدعه الانسان من أسباب القوة المادية ولما يمكن للشعوب من الوصول إليه بالأسباب البشرية والعلوم والمخترعات والتنمية وكل ما يؤدي الى سيطرة الانسان على البيئة من حوله. ولكنهم لم يهتموا لما يدور في عقول الناس وأذهانهم لأن الانسان المعاصر قد يبدو لنا من منظور الحضارة أنه على درجة كبيرة من الرقي وهو في أعماقه وريث أصيل للتوحش وخشونة الطبع واللجوء الى القوة ومجافاة التعقل.

لكن المسألة لا تتضح أبعادها جيداً إلا من خلال الدراسات التاريخية لنشوء الحضارات وازدهارها ثم العلة التي قضت عليها وقد رأينا في العصر الحديث أن الاستعمار قد جعل من بريطانيا وفرنسا في وقت من الأوقات دولاً عظمى وها هما اليوم دولتان من الدرجة الثانية بجوار الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي، وهذا مرده للانسان وما يقتضيه السلوك وما يجري من التغيرات الاجتماعية والانسانية أيضاً.

لذلك يقدم القرآن نقد العقل الخالص من خلال قراءة التاريخ الأممي للحضارات فيبين لنا أن الأمة تنشأ في التاريخ من خلال النمو الأخلاقي فتزدهر وتنتشر الحضارة على يدي تلك الأمة ثم تتحول الشعوب بلا وعي الى السلوك المادي الأعمى الذي لا يعرف الحرية ولا المساواة الانسانية فيكون من ذلك التمزق الاجتماعي والهبوط الحضاري وتحول الطبقات الى الصراع والتطاحن فتنشأ بين الشعوب العنصريات والعروق والفتن المدمرة.

ان التحليل الذي أورده القرآن في ضياع ملك اليهود سنراه في سور عديدة كان السبب المباشر لنزولها هو اختلاف منحى الاسلاميين في السلوك لمنحى اليهود نحو المادية و بالتالي العنصرية التي عملت بزوال أمتهم في التاريخ . ويريد القرآن من ذلك أن يوضح لهم أن هذا الأمر أو ذاك كان العلة القاتلة لما حدث لليهود وأمتهم وأنهم لو أرادوا للأمة الاسلامية دوام الحال والازدهار ونمو الحضارة فإن عليهم أن يتحصّنوا ضد المادية والعنصرية وما ينخر في البناء الاجتماعي لهم.

كيف غاب عن الاسلاميين التحليل العظيم للعقلية اليهودية الذي أوردته سورة «البقرة» وغيرها من السور التي فصلت كيف نشأت تلك العقلية الموروثة عن بني اسرائيل وأن القرآن انما يبين من خلال تلك السورة وأشباهها أن الأمم انما تقوم وتنهدم بمعتقدات أبنائها وما يترتب عن تلك العقائد من سلوكيات هي في الواقع صدى لما يدور في أذهان الناس من الايمان المزيف والعقائد الفاسدة ، بل وما يتربص بالأذهان من الخرافات والأساطير حتى لنرى في الأسطورة اليهودية أن «اسرائيل» قد قاتل الرب «يهوه» ليلة كاملة حتى صرعه ، ولذلك ترى ربهم هذا أصبح رهن اشارتهم لما يريدون من السيطرة والطغيان في الأرض ، وان «يهوه» هذا قد دفع ثمن هزيمته لشعب الله المختار الذي لا يقهر وأن العنصرية التي نشرتها تلك الأساطير بين الأمة اليهودية قد كانت سبباً أولياً في زوال الأمة وضياع السلطان اليهودي في التاريخ الحضاري على يدي الفرس والروم.

ان المشكلة اليهودية هي في الواقع مشكلة الفكر الديني كله لأن الأممية السابقة على اليهودية لم توجد في التاريخ إلا من خلال المادية والمنظور الحسي من حول الناس والبيئة ، لذلك نجد القرآن يطلق على الشعوبية قبل قيام الأمة اليهودية لأقوام أمثال قوم نوح وقوم هو وصالح وابراهيم وغيرهم ؛ لأن العلاقات الاجتماعية عندئذ لم تكن قائمة على مبدأ خلقي انما كان يربط القوم من هؤلاء منهج مادي حسي مثل قوم لوط .. وهذا ما يطلق عليه جملة المفكرين الثموديين أو اللواطية أو غير ذلك ما يقوم على مسلك مادي للشهوات المادية المعروفة والتي درج القوم على فعلها وقتئذ.

حتى الحضارة المصرية القديمة التي مارست الأديان والطقوس وغيرها لم تكن تشكل أمة ولم يطلق القرآن عليها معنى الأمة حيث قال قوم فرعون وآل فرعون. لأن المبدأ لم ينبنِ وقت ذلك على منهج أخلاقي ولم تكن الرابطة بين الناس إلا المنفعة والطبقية. ولذلك كان موسى أول الأنبياء يسير على نهج بدأه ابراهيم وقام من أجله ببناء بيت الله الحرام الذي كان رمزاً حيّاً للسلام والمبدأ الأخلاقي الأول الذي يجب أن تُبنى عليه الأمة والمجتمع الحضاري للانسان.

لذلك نزل القصص الأممي في طوال السور القرآنية أمثال «البقرة» و«آل عمران» وغيرهما مما يدل على أن القرآن قد عني عناية خاصة بالمشكلة اليهودية لأنها وإن كانت تدور في فلك مشكلات أهل الكتاب فهي المشكلة الأممية التي يريد القرآن أن يتعرّض لها بالنقد والتحليل لأنه مقبل على بناء أمة الأمم ومطاف الفكر الديني السليم للمنهج الأخلاقي الصحيح الذي يريد منه أن يكون الأساس المتين للبناية الاجتماعية المقبلة.

لا يتعرض القرآن للقصص القومي في نقد العقل الخالص أو لتحليل ظاهرة فناء الأقوام وانهيار الأمم إلا بغرض واحد هو خلق الوعي بالحركة التاريخية التي ستشكل للمسلمين أمتهم الخالصة ليكون من ذلك دوامها وازدهارها على مرّ الزمان. وهذا الواقع الذي نراه من انهيار الأمة الاسلامية دليل واضح على أنها لم تنهج النهج القرآني الذي نص عليه الدين الخالص وبينه في موضوعات تحليل أسباب انهيار الأقوام والأمم السابقة التي يقول القرآن عنها جميعاً في النار وقد لحقت بها أمة الاسلام أيضاً.

لقد ظل القرآن تؤرقه تلك القضية من انحدار الحضارات وهلاك الأمم وهو يرى التاريخ الانساني يبحث عن العالم الأمثل لقيام الأمة. ظلت تلك القضية شغله الشاغل لكبسة كبيرة من العقائد والأفكار والشرائع وجاءت تبعاً لذلك مسألة النسخ ومسألة البدأ ومسألة القضاء والقدر حتى كانت تلك الفترة العظيمة التي نزلت فيها أجل السور القرآنية جميعاً لتضع لتلك القضية الحل النهائي. فكان من سورة «الاسراء» التي تدعى أيضاً سورة «بني اسرائيل» الميثاق والمنهج الرباني الذي

يجب أن تقوم عليه الأمة المثلى التي لو اتبعت ما جاء بتلك السور فلن يمسها ما مسّ الأمم السابقة من الهلاك والفناء. وتنبأ القرآن أن الأمة التي ستقوم على تلك المبادئ هي أمة الأمم ومطاف البحث المضني للوصول الى تلك الغاية السماوية للانسانية جمعاء.

لا نودّ أن نخوض فيما يقوله المسلمون اليوم عن معجزة الاسراء وهل كانت صعوداً الى السماء بالجسد أو الروح فقط أو غير ذلك مما شابه قول اليهود بقيام عزيز من بعد الموت أو مما قاله المسيحيون في شأن قيامة المسيح وما يقوله أهل كل دين فيما يختص بألوهية الأنبياء أو الرسل. هذه الأمور الأسطورية لا يجب أن تخفي عنا المسألة العلمية الكبرى التي كشفت عنها سورة «الاسراء» اذ تقول تلك السورة ان اليهود عندما فتح الله عليهم بأسباب القوة المادية من كثرة الأموال وكثرة الأولاد والنسل، لم يضع اليهود تلك الأسباب لانماء الحضارة وانما وضعوها في خدمة الطغيان وشن الحرب على الجيران من الفرس والرومان. وكان نتيجة لذلك هزيمتهم بعد انتصار وضياع ملكهم وهلاك أمتهم في التاريخ. وان تلك الظاهرة التي يتحدث عنها القرآن ما هي إلا ظاهرة الصراع الطبقي بين الأمم وضعها القرآن في القالب العنصري وهو يريد من ذلك أن يقول ان فناء المجتمعات له علة واحدة هي علة العلل ويعني بها استعلاء البعض بسبب القوة والطغيان على البعض الآخر وغياب المبدأ الانساني الأول وهو المساواة بين الناس.

صحيح أنه يجب أن نطلق على ما يدور بين الأمم الصراع الطبقي لأن ذلك انما يدور بين الفئات والطوائف داخل المجتمعات كل بحسب بيئته. ولكنه من الجائز أن نطلق عليها نفس مسمى الصراع الطبقي لأن الأفكار المنحرفة والمتطرفة ستؤدي الى نفس النتيجة أيضاً والحروب الأهلية هي صورة لما يحدث بين الأمم من الحروب النظامية وأن النتيجة في كلتا الحالتين واحدة.

والقرآن المكي لو نظرنا إليه من جهة العقائد لوجدناه يختلف عن القرآن المدني الذي قامت الدولة في ظله وفرق كبير بين مفهوم الأمة ومفهوم الدولة اذ تستمد الأمة

مفاهيم ومبادئ قيامها من العلاقة الأولى والدولة تستمد وجودها الفعلي من الأسباب الجزئية والمرحليات والأوضاع البيئية التي قد تنطبق أو لا تنطبق. وهذا الأمر الخطير يجب أن يوجه السادة المفكرون جلّ همهم إليه والنظر العميق فيما ينطوي عليه القرآن المكي الذي نزل من أجل الأمة العالمية التي بشّر بها في مواضعه المختلفة.

ان مشكلة العقل الانساني من منظور علم المعرفة قد لمسها القرآن عندما كشف عن الدهائيين من اليهود والنصارى والمسلمين المتطرفين، حتى أنه في أكثر من موضع ينبه ويقول — «انما أنا بشر مثلكم» —. وهذا الجانب عندما بدأ القرآن نقد العقل الخالص تبيّن له ان الكثير من العقائد الفاسدة لا يمكن اصلاحها أو تخلّي أصحابها عنها. ولهذا راح القرآن يقدّم لنا علمَين جليلَين هما: علم التاريخ وفلسفة التاريخ اللذين اشتملا على القصص القرآني. وبدأت السور القرآنية في تقديم ألوان مختلفة للقصص لمعرفة حركة التاريخ وألوان مختلفة من القصص الأممي لمعرفة حركة العقل. ووضح من ذلك أن الدهائيين يغلبهم على عقولهم عملية الداعي الحر الذي تقتحمه عليهم الأهواء والشهوات وكل ما هو مادي مرغوب فيه. وتكون نتيجة ظهور الأفكار العنصرية والطبقية والتطرف الديني والهوس والشعوذات والأساطير والأكاذيب وضياع المبادئ والمثل العليا في هذا البحر المفتون أهله بالسير الذاتية والتراتيم التي يخيل إليهم أنها أخلاقية وهي في الواقع ليس لها أصل في الدين الخالص.

كل الأديان خلقت للناس أصناماً وجعلت قيوداً وطبقات ومللاً ونحلاً وحرمت على العقول النظر والتأمل. لذلك رأينا في مجال القضايا أنه يهتم أي اهتمام بالتحليل وكشف العلة ولذلك يقول في أكثر من موضع بعد تقديم القضية وتحليلها يقول — «ذلك بأنهم كذا وكذا وكذا» —. وهذه هي العلة وهذا هو الداء وأن الناس تتبع كل الطرق لخلق الشرعية للأهواء والشهوات والتخريف والوضع خير شاهد على أننا يجب أن نشك وأن نحلل لنصل من ذلك الى اليقين.

لماذا يرفض المسلمون الصور الكلية للمجتمع والأشكال الشمولية؟ لو بحثنا معنى الأمة والعالمية وكل الأشكال التي تجمع الانسان على مائدة الله لوجدناها

بالضرورة روحية ، لكنهم مالوا الى الشهوات المادية وأضفوا على ذلك كله شرع الله وهو في الواقع لا يمت الى الأمة وانما هو نهج الأقوام وشرع الشيطان والحافز الفردي وحرية الانسان لا تتعارض مع قسمة الله للماديات بين الناس اذ هو وحدة قد جعل لكل انسان طاقة استيعاب محددة لا يستطيع هو أن يتعداها وان الطبيعة التي خلقت المقادير والعتبات وغير ذلك من الضوابط كان الهدف منها أن الله قسم بين الناس ولا يستطيع من جعل الله له وجبة مقدارها كيلوجراماً أن يتناول اثنين وأن لكل بقدر حاجته عند الله فما بال القوم لا يفقهون — ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** ﴾.

هذه المسألة لا يوردها القرآن إلا ليبين أن الله لم يكن غافلاً عن مشكلة الانسان مع الشهوات والغرائز وأنه يعرف أن ذلك لا بدّ له من ضابط ولذلك جعل القرآن في الجنس واشباعه أربع زوجات وأن المشكلة فيما يفيض ويضر بالآخرين ، وأن الماديات خلف كل انجراف وهي تتربص بالعقل وتعمي البصيرة . والتحليل هو الذي يبين لنا الصدق من البهتان .

لقد خرجنا عن موضوعنا قليلاً لكن المشكلة الأممية تنص نصّاً صريحاً على أن المادية داء الأدواء جميعاً وهي التي تنخر في الأمم وتعمل معاول الهدم فيها دون أن يشعر أهل الأمة بذلك ، لهذا رأينا أن نبيّن أهمية النظر بعين يقظة الى تلك المسألة .

وفي دراستنا للمنهج المادي الذي تناوله القرآن بالنقد والتحليل في هلاك الأقوام والأمم نتبيّن شيئاً عجباً اذ نرى القرآن يهاجم المادية كمنهج وأسلوب لحياة الشهوات والغرائز ، وهو في هذا الصدد قد أوضح لنا بجلاء أن المترفين خلف كل فساد في الأرض وأن الله قد جعل هؤلاء الناس كأداة لهلاك الأمم يسلطها الله على مَن يشاء من الماديين الذين لم يعرفوا الأخلاق والروحانية والعدالة الاجتماعية وغيرها من القيم الانسانية الأصيلة .

لكنه في نفس الوقت وهذا من المهم بمكان قد بين في غير موضع من الكتاب أن المادية كمنهج للعلوم والمعارف هي المنهج الوحيد الذي يستطيع الانسان من خلاله

كشف السنن التي تحكم حركة الطبيعة والأشياء. ولذلك راح يقول لنا عن الكم والمقدار أن الله عندما خلق الأشياء جعل لك منها كمّاً ومقداراً محسوباً ـ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ ، ثم نراه في القياس العقلي الذي ورد في آيات كثيرة وفي مواضع مختلفة يلحق المحسوس من الآيات الطبيعية بالمعقول من القضايا المطروحة. وهذا مما يجب ان يلتفت إليه الاسلاميون ليكشفوا عن «الايسمولوجيا» العصرية السليمة والتي هي ليست نتاجاً «لبيكون» أو غيره وانما هي منهج قرآني أصيل للمعرفة الحقة وردت في مواضع كثيرة من نقد المعرفة لدى الأقدمين والكافرين ولدى الأميين والقوميين الذين هلكوا في الدهر وراح القرآن يوضح لنا أن هلكوا لسببين أساسيين: الأول غلبتهم شهواتهم والمسالك المادية المعادية لتنمية المعاني الروحية للانسان كما يريده الله، والثاني لأنهم لم يعرفوا نقد العقل الخالص في أمور المعرفة الصحيحة وأنهم اعتدوا في المعرفة على جملة العقل الذي يداهمه الذهانيات في أحيان كثيرة. ولهذا وضع القرآن للجدل والنطق والمعرفة منهج العقل الخالص الذي وردت به الآيات الحسية عقب كل قضية عقلية مطروحة.

أرجو أيها القارئ أن تكون علاقتنا على الصبر المضيض ماضية، فإنه مصير أمة تسير حثيثاً كما نرى اليوم الى الفناء. فالمسألة حياة أو موت لملايين من البشر هم أقرب الناس إلينا وقد يكون من الهالكين أعز ما تعز وأقرب ما يكون ولا تعجلن بالا بصراف عني فإني مسكين أنوء بحمل مسئولية كبيرة هي انني ربما أدري العلة وغيري لا يدري واثارة المناقشة في رأيي هي في مقام الأهمية كالرأي تماماً، والحال بين يدي ويديك كما نراه فساد وضياع وشموع الأمل يتكاثف من حولها ضباب الجهل وخبل العقول وليكن شعارنا فلنبحث عن الحقيقة التي يكاد عقدها أن ينفرط وتضيع حياته بين الثرى لما راح القرآن ينقد مسالك الهالكين من القوميين والأميين والكافرين والمنافقين والمُفسدين في الأرض، فإنه يحدد بين يدينا هذه الأعمال كأداة للضبط حيث يتعذر في كثير من السلوك البشري التنميط وهو كما رأينا جلّ مختلف والماديات تجعل من الانسان لكل انحراف عن الطبيعة السوية والفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها. ولهذا يقول القرآن في مثل هذا الموضع ان قوم لوط الماديين كانوا يأتون

الذكران من العالمين افراط في الشهوة المادية رغم أن الذكورة واضحة تماماً وأن هؤلاء الذكران كان جنسهم الذكوري لا يحتاج من الانسان عناءً أو جهلاً أو مشقة ليتبيّنه لكن الانسان الذي وهبه الله حرية الاختيار والعقل فأوقع في الأرض الفساد وقلب المترفون الماديون الطبيعة والفطرة ووضعوها في غير موضعها وفعلوا ما أمرتهم به الغرائز والشهوات الحيوانية التي لا تعرف الطريق الى الله وأن ذلك ليضع أصابعنا على مواطن الداء في النفس البشرية وأن المادية والابليس المغروسين في النفس الباطنية تتربص بالناس دون وعي لهم بهذا الأمر حتى لنرى من كذب الماديين المنافقين في الأمة يسارعون الى بناء المساجد وحرق الأبخرة ونشر التعاويز واقامة المزارات وغيرها كثير وهم في الحقيقة أصحاب ملايين جمعوها لكلمة الشيطان وأفسدوا علاقات المجتمع وكل ذلك باسم الحرية والدين والقيم الأخلاقية وأن القرآن في موضع بناء المساجد نصّ نصّاً صريحاً ان تلك المساجد لا تقام إلا لنشر تعاليم الله وهي بالضرورة روحية وليست مادية وهي بالضرورة من أجل القيم السماوية وليس نفاقاً اجتماعياً وهي بالضرورة من أجل الانسان وليست من أجل الشيطان.

وترى كل ذلك وتعجب كيف للاسلام في هذا الجو المشبع بالمستنقع الآسن وكيف لتلك الأمة أن تنهض وتأخذ لها مكاناً حديثاً بين الأمم الراقية.

لقد أوضح القرآن في غير موضع ان المادية من المال والبنين وكل أسباب القوة والطغيان والملكية لا تجتمع أبداً مع الله في حضور واحد وحسبنا أن الشيطان المادي والابليس الغربي هما بعينيهما كانا الخصمين اللدودين للوجود الالهي في حياة الانسان والقصة المشهورة في سورة الكهف للذي جعل الله له جنتين والذي لم يجعل الله له حظاً من المال أو البنين ، أن الأول كفر بالله وآبائه وجعل حياته للطغيان والشيطان وأن الثاني قد أخذ جنب الله والأخلاق الانسانية ولم يدرس الاسلاميون تلك القصة ولم يروا فيها المغزى العميق الذي يريده القرآن حتى أن جهلة السابقين قد جعلوا من الخصوصية كمال القياس على العموميات ومن الشرائع سلطاناً فوق العقائد والأوليات ولم يفهموا أن العلم في العقل النظري هو الذي يكشف عن السنة والقانون وليس

للجزئي إلا مدلول الوصف الحسي الذي يوظفه العقل في التجريد واخضاع الظواهر للقوانين والعلل الغائية السامية.

انها أمة تموت وتحتضر في كل يوم وليلة وهذا من شأنه أن يرفع القادر له سلاحاً ومدفعاً ليذود به عن الناس التهلكة التي تنتظرهم في نهاية المطاف ولا أملك من هذا السلاح إلا ما بين يدي من التحكم للقرطاس والقرآن لم يترك شيئاً إلا وحلله وبينه وأوضح الطريق ولدينا القرآن المفصل والقرآن المحكم والقرآن المتشابه ولدينا الناسخ والمنسوخ والقرآن المتلوّ والقرآن المجلوّ ولدينا الفطرة واستفت قلبك وهذا كله قد جعله الله على الناس سلطاناً وأنا لا أستطيع أن أترك القلم لقولة الجاهل «انك لست أزهريّاً». ألم يفتح الله على النملة والنحلة والغراب وكل ما ورد في الآيات والوحي يؤكد ذلك أولى بالله أن يفتح على مثلي أيها الجاهل الكبير وحجة المختصين وأهل الكهانة قد رفضها الله رفضاً قاطعاً فأوضح أن الكهانة تريد المادة والشهوات، ولذلك باعت للناس صكوك الغفران وجعلت الله رهينة بين أيديهم، ولذلك يقول القرآن ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. وهذا هو العقد بين الله والناس وأن الاسلام ليس فيه رجل يتمسح بالدين والله ويجعل من نفسه ربّاً وإلهاً آخر وأن ذلك برفضه وجود العقل ووجود خالق العقل وما أنت عليهم بوكيل.

قضية القضايا تصيح في الناس النائمين وتندّد بالغفلة ويبين القرآن أن الغافلين هم أولئك الذين فرطوا في جنب الله والمسئولية الأممية مسئولية خطيرة والاستعمار وآثاره والحروب ونتائجها بين أيدينا والقرآن يفجر مسألة أهل الكتاب لغاية عظمى هي الخوف أن يصير الناس في الاسلام أهل كتاب أيضاً تجري عليهم سنة الهلاك والفناء مثلما حدث لأهل الكتاب من قبل الذين ضربت عليهم الذلة والسكنة وباءوا بغضب من الله وأن ذلك ظواهره ومظاهره في أمة الاسلام بادية ومصيرها يكاد يكون مقرراً إلا أن نغير ما بأنفسنا وندرس ونحلّل ونعرف المنهج وننفذ ونفند وندرك من ذلك كله العقل الخالص.

لكي نعرف كيف تكون القيم لدى الماديين دعنا ننظر ما حدث بين موسى وفرعون المادية المصرية القديمة اذ يقول موسى لفرعون انه لا يجب أن تجعل من الناس طبقات وطوائف فيصير من ذلك سادة وعبيد ، وقد خلق الله الناس أحراراً. ولكن هذا المنطق لا يعجب الطاغية فيردّ على موسى قائلاً — «مَن أنت أولاً حتى تقف بين يدي لتقول ما تقول انك شخصية نكرة لا تكاد تبين بين الناس ودعنا من ذلك أمعك أسورة من ذهب أو أي شيء يثبت قيمتك لدى القوم؟» — أنظر المنطق المادي انه يفقد الانسان قيمته الروحية ولا يعرف للناس قيمة إلا من خلال ما يملكون من الذهب والفضة والوسائل الأخرى التي يعتبرها الناس وصاحب السلطان.

لو نظرنا الى ما حققه الأقدمون من الأمم الهالكة والآثار التي تكشف عنها النقائب كل يوم لوضحت لنا الحقيقة وخير شاهد على هذا الفرعون الصغير المدعوّ «توت عنخ آمون» وما خلفه من الآثار الجنائزية وكلها كما نعرف من الذهب الخالص ولو كان ينطق الحجر لنطقت حجارة الأهرام بالظلم والطغيان لأن الذين بنوها هم طبقة العامل والرعية المطحونة في مجتمع المادية والصراع الطبقي والطائفي الذي يحكي القرآن عنه أنه جعل من بني اسرائيل وقتذاك عبيداً للعمل الذي يجني ثمراته السادة من الطبقيين قوم فرعون وآل فرعون وسادة الحكم المادي والفكر المادي والفساد المادي في الأرض.

نحن نطرق هذا الموضوع لنبين فيما سيأتي باذن الله ان المقولات العنصرية التي قالها أهل الكتاب الأميين السابقين على الاسلام لم تكن لوجه الله بل كانت لوجه الشيطان المادي أيضاً وان بني اسرائيل الذين أشربوا في قلوبهم العجل، وهو كما نعرف الاله الذهبي الذي لم يرضوا عنه بديلاً. هؤلاء القوم الذين ورث اليهود عنهم هذا الشغف بعبادة كل ما هو مادي وقعوا في العنصرية لتحقيق الأغراض الدينية والمادية فإذا كان ملك اليهود وغلبتهم شنوا الحروب ودمروا العمران وأوقعوا بالأرض الفساد حتى يقول اليهودي أن وجوده الحق هو في شن الحرب ولا وجود لليهودي

في غير هذا الموضع وأن ذلك ليوضح لنا الخيط الرفيع بين ما يعلنون وما يكبتونه من الشرور والآثام.

لو انتهى أمر أمة الاسلام الى غير ما انتهى به أمر أمة اليهود أو النصارى لكان ذلك مدعاة لرفع راية الاسلام لكن والحال كما نرى فإنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى وان الناس في هذا الزمن على دين ملوكهم والملوك في كل وقت اذا دخلوا قرية أفسدوها ونشروا فيها مظاهر الترف والبذخ وضياع العامة وهذا نذير لهلاك الأمة وضياع القومية أيضاً.

المؤلف

الباب الأول

مقولات اليهود

الفصل الأول
المقولات في سورة «البقرة»

سبق أن بيّنا أسلوب القرآن في التعرّض للقضايا الفكرية وانه يلجأ الى التحليل المنطقي فيقدّم التاريخ في القصص الذي يشمل قصص الأقوام وقصص الأمم والسير الذاتية في بعض الأحيان كالسيرة الذاتية التي قدمها ليوسف عليه السلام في سورة «يوسف» ذلك كله ليكون بين يدينا فلسفة التاريخ التي تكشف لنا العلة الغائية وراء سلوك تلك الأقوام والأمم وعلى درب هذا النهج قدم القرآن لنا سورة «البقرة» ليكون منها منهج التحليل للمشكلة اليهودية التي كان يهم القرآن أن يتعرض لها بالنقض وإلقاء الضوء لأن اليهود والفكر اليهودي والعقائد اليهودية كان لها صوت مسموع في البيئة التي اختارها صاحب الدعوة لتكون منبتاً للأمّة الجديدة الاسلامية وان الضرورة باتت تحتم أن تهدم الأمة لتقوم محلها أمّة. وليس ذلك من السهولة في ظل الأوضاع الفكرية والعقائدية المعادية والسلطان الاقتصادي والسياسي لليهود في المدينة وقتئذ كان من الصعب التصدّي له بالفورية والعفوية اللتين لا تتسمان بالعقل والحكمة.

لذلك جاءت تلك السورة الجليلة نوراً سماوياً يكشف للناس ما خفي من تاريخ الأمة اليهودية للاسلاميين أن تلك العقلية اليهودية هي عقلية موروثة تحدّرت في التاريخ العقائدي عن بني اسرائيل الذين راحت سورة «البقرة» تكشف لنا عن سفالتهم وانحطاطهم العقلي والخلقي وخير ذلك ما نراه في تلك السورة في أكثر من

موضع وفي أكثر من حادثة وقوفهم موقف الجهَلة والمعاندين لما يجب أن يمليه العقل والشعور ولذلك جعل القرآن منهم القردة وهي كما نعلم مسخ الانسان في العقل والخنازير وهي مسخ الانسان في الشعور. وليس ذلك إلا الدونية التي يريد القرآن أن يوضح للاسلاميين والناس من خلالها فساد اليهودية كعقيدة وفساد أمرها كأمة.

في كل موقف لبني اسرائيل في الدعوة عندما قام موسى عليه السلام يدعوهم الى الله وجدنا أن تلك العقلية لم تكن لديها القدرات أن تستوعب ما نزل من العقائد والشرائع على هذا الرسول الكريم لأن تلك الطائفة من الناس عاشت في أرض العبودية والرق والقهر حيث كانت الفرعونية منهجاً مادياً خالصاً لا يعرف القيم الروحية ولا ينمي مثل هذا المجتمع فيه إلا المحسوسات التي يتمرغ فيها العامة من الناس والطبقات الدنيئة من المجتمع تمرغ الحيوان الأعجم. ولذلك يقول القرآن ان موسى عندما أراد أن يوضح لهم الفارق الكبير بين ما يريده هو، وهو طور روحي عظيم بلغ من التجريد سماوات المعقولات وهم لا يستطيعون اللحاق به عندما أراد أن يوضح لهم تلك القضية في مناسبة مقتل أحد وجهائهم أمرهم بذبح بقرة ليبين لهم عن طريق القياس الحسي أن هذا القتيل وتلك البقرة الذبيحة ليس لها دلالة إلا فناء المحسوسات والمادة لكن الروح والعقل هو ما يبقى للناس من تلك الحياة الدنيوية وأن القرآن قدم لنا أن قتل هذا الشريف فيهم كاد يسبب فتنة كبيرة بينهم نظراً لأنهم يضعون أقدار الناس بحسب الماديات ويريد موسى أن يقول لهم ان القتل كجريمة لا تستحق الفتنة حيث خلق الله الموت والحياة لينقل الناس من عالم المادة الى عالم الروح وما عليهم في مثل تلك الحال إلا بتحكيم العقل وان مثل هذا الموقف الجاهلي كان يحدث بين العرب قبل الاسلام إذ ما يكاد يقتل أحد الناس حتى تشتعل الحرب التي تدوم آماداً بعيدة لتهلك الحرث والنسل وما ذلك إلا لأن القوم يعبدون المادية من دون الله.

وهكذا كشفت تلك الحادثة الفارق الكبير بين عقلية موسى وعقلية عبدة الذهب، وبينت العقلية الاسرائيلية هي عقلية الغاب والتوحش واللامعقول في مواجهة الحوادث وأن موسى عندما قال لهم ان الله يأمرهم بذبح البقرة كان يريد

منهم أن يذبحوا في نفوسهم المادية وعشقها وأن يتخلوا عن هذا المنهج كعقيدة لحياة انسانية غايتها الروحانية والسمو العقلي ولم يفهم القوم الفارق الهائل بين الانسان كجسد وبين الانسان كروح ولذلك أطلق القرآن اسم «البقرة» على تلك السورة ليشير من خلال ذلك الى أن اليهود لن يؤمنوا بما جاء في القرآن ولن يدخلوا في الاسلام وكما رفعوا راية العصيان على موسى فانهم سيرفعون راية العصيان على محمد (صلعم) أيضاً:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ من بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥/ البقرة).

لذلك ذهب القرآن في سورة «البقرة» كل مذهب ليعدّد ويكشف عن مخازي القوم وسفاهاتهم حتى ليقول عندما رموا المسلمين بالسفه في مسألة تغيير القبلة

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلَّـهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ... ﴾.

أي أن المشكلة هي العقلية الاسرائيلية الموروثة التي رأينا سورة «البقرة» تعدّد لنا مواقف بني اسرائيل من الايمان بما جاء بالكتب السماوية وأنهم لم يفهموا أنها رسالات روحية والمادية كمنهج لا تستقيم مع ما يدعو إليه رسل الله ومنهم موسى وعيسى ومحمد (صلعم) أرباب الأمم الدينية.

لكن المسألة لم تقف على حدّ التكذيب والعصيان وانما تخطوا ذلك الى تحريف الكتب السماوية ووضعها حتى قالوا للناس ان الله لا يعلم الجزئيات ولذلك فانه لا يعلم ما يدور في المعاملات اليومية. وهذا الأمر أدخلوه في كتب كتبوها بأيديهم وقالوا في تلك الكتب ان الله عندما خلق الخلق فانه اختار بني اسرائيل واليهود ليكون منهم شعب الله المختار. ولهذا لن يدخل يهودي النار مثل الآخرين حتى وان دخل النار فإنه لن يمكث في النار إلا أياماً معدودة وهذا ما يكشف لنا الأهواء والشهوات المادية التي تصبغ الفكر لديهم بصبغات عنصرية يكون من شأنها جعل الايمان

والعقيدة في خدمتها وعن هذا الطريق يكون من اليهود الصفوة التي تحكم العالم وتستأثر لنفسها بالترف والرغد المادي :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٧٩).

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٠/ البقرة).

هذا الفكر المنحرف جاء من الهوى والشطط الذهاني الذي يصيب العقل عندما تداهمه الغرائز المادية فيصير آلة في خلق الأفكار المدسوسة على الدين والعقيدة :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨/ البقرة).

وهذا يبين لنا أن عادة اليهود وخاصتهم لا يفهمون من الرسالات السماوية إلا بحسب أهوائهم وما يمليه عليهم شيطان الغرائز المادية والأهواء الشهوانية ولا ينبني عندهم إعتقاد إلا بالظن وهذا يجافي العلمانية والمنطق وهما أساس عمل العقل وصحوته الراشدة.

وأخطر من ذلك أنهم وإن عرفوا أصول الاعتقاد والدين الخالص فلن يظهروه للناس وإلا كان ذلك حجة عليهم وبيان لفساد مسلكهم. ولهذا تراهم يكتمون عن الناس صحيح الديانة ويبثون بين العامة الخرافة والأسطورة حتى يجعلوا من ذلك حجاباً وستاراً بين الناس وراشد العقل. وفي كل مجتمع لا تبدأ الفتنة الدينية إلا من اليهود والعنصريين أشباههم وبؤرة الفساد لا تظهر إلّا من مقولاتهم في الأمم ولا يختلف خاصتهم عن عامتهم في هذا الداء وخير دليل على ما ادعوه من شفاعتهم عند الله وظهرت صكوك الغفران الشهيرة التي ابتدعها كهان الديانة لديهم حتى يسلبوا الناس أموالهم بالباطل وجعلوا غيبة الله مصلحة للاثراء. وهذا ما جعل الاسلام يحرم

الشفاعة وحادثة زيد وشفاعته لدى رسول الله (صلعم) في المرأة السارقة — «أتشفع في حدّ من حدود الله والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها (الحديث)» —. وهذا ما جعل القرآن يقول للناس أن الله ليس بينه وبين الناس واسطة:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (الآية).

وان صحيح الدين ليس فيه رجل الدين والحرية التي يكفلها القرآن للعقل هي أخطر ما في القرآن كله.

لم يجعل القرآن لطبقة رجل الدين سلطاناً على العقل حتى وإن جعل للفقهاء سلطاناً على الناس لتنفيذ الشرع ولهذا يدعو القرآن للفكر ويحض عليه ويبين أن الطريق السليم لبلوغ اليقين لا بدّ أن يمرّ بالشك والتجربة وهذا ابراهيم يبحث في الوجود من حوله عن ربه وهذا موسى يختلي أربعين ليلة ليعرف المناجاة الربانية وكيفية الوصول الى المعرفة السليمة. وهذه المسألة تضع لنا كيفية بناء الأمم على المعقول الصحيح المفهوم المنطقي للعقائد والتشاريع التي ستنبني عليها الأسس الاجتماعية التي يراد لها الاستقرار والبقاء.

ان اللعنة تلو اللعنة التي يصبها القرآن على اليهود:

﴿لُعِنُواْ بِمَا قَالُوا﴾ (الآية).

لا يكاد العقل يتبين سببها في النقد والتحليل لمواقف بني اسرائيل واليهود من بعدهم حتى يقول للمسلمين إن أردتم بقاء أمتكم وازدهارها وجب عليكم الجهاد في سبيل المعرفة وتنمية العقل والتفقّه في الدين وان طلب العلم لا بدّ أن يكون من ضروريات المسائل الاجتماعية وما يحض عليه القرآن من العلم لا يمكن حصره. وهذا الأمر قد غفلت عنه الأمة الاسلامية ولذلك لحقت بمصير ما سبقها

من الأمم وبات الاسلام غريباً بين أهله لأنهم لم يعرفوا صحيح الطريق إليه، وان ذلك أصبح يبث الداء وعلة العلل.

هذا الايمان الذي يتجزأ بين الأخذ بالنقل في مسائل والأخذ بالعقل في مسائل أخرى ليس هو النهج السليم لبناء الأمة التي يريدها القرآن. واليهود كانوا يأخذون ببعض الكتاب ويدعون البعض، وهنا تتدخل الأهواء ويصبح الدين ليس لله خالصاً وهذا ما يفتح على الأمة باب الشيطان والأحرى أن يأخذ بالعقل لأنه مناط التكليف والحساب ولأن النقل تداهمه الخرافات والأساطير وهي مرعى لكل ذي هوى يريد أن يشبع بالحرام ما لم يشبعه بالحلال. وهذه المسألة من أخطر المسائل والعجيب أنها لا تكتشف أهميتها إلا في حضور الحرية وابداء الرأي الآخر:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ... ﴾ (٨٥/ البقرة).

اليهود لم يأخذوا التوراة كمبدأ للتشريع إلا بحسب أهوائهم ولذلك عندما دعاهم محمد (صلعم) الى الدخول في الاسلام وهو منبع سماوي يكمل ما سبقه من الرسالة ولا يتعارض معها قالوا لمحمد (صلعم) ان قلوبهم خلقها الله مغلقة لا ينفذ إليها ما يقوله. وهذه المقولة طعن في الله وإلقاء التبعية عليه في مسألة كفرهم بالقرآن ومحمد (صلعم) ولذلك ردّ عليهم القرآن في هذا الشأن وبيّن لهم انهم بشر مثل سائر خلق الله ولهم من العقل ما يمكنهم من فهم المعاني القرآنية والأغراض التي نزل من أجلها بل قال لهم ان الله جعل لكل خلقة من البصيرة ما تستطيع به أن تدرك الحياة والسنن التي تحكمها:

﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ الآية

والبعوضة وما فوقها مثل لذلك لمن يريد أن يتدبّر آيات الله ـــ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (٢٦).

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (٢٧).

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٨٨).

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٨٩) البقرة.

القرآن يشرح لنا هذه العقلية الكبيرة التي ملئت وشغفت بالمادية وليست معاداتها للكتب السماوية إلا تخوّفاً من فقدان المراكز الاجتماعية التي تضمن لها حياة المترفين في الأرض ولهذا لا يمكن أن يؤمن اليهود إلا بما أنزل عليهم من الخرافات والأساطير التي تشبع الهوى والغرائز والبهيمية لديهم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٩١).

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (٩٢).

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٩٣).

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٩٤) البقرة —.

وهكذا تسقط المقولات اليهودية الواحدة تلو الأخرى ولو كانوا يريدون الحياة

الآخرة والروحانية لصدقوا ما نزل على موسى عليه السلام وهو يمثل في الأطوار طوراً روحيّاً وعقليّاً عظيماً رفعه الله فوقهم ليكون منه حجة عليهم يوم القيامة ولكنهم أخلدوا للمادية حتى عبدوا العجل وأشربوه في قلوبهم فلن يؤمنوا بالروحانية اذن أبداً.

هذه هي قضية أمة تنخر في عظامها المنهج المادي للحياة الاجتماعية وهو يكشف عقلية أهل تلك الأمة ليوضح لنا أن الأمم ما تهلك في التاريخ إلا من خلال تلك الأمة المادية التي تخضع العقول لسلطانها فتجعلها في خدمة أغراضها فتحرف الكتب السماوية وتفسد العقائد وتبطل الشرائع وتخمد الهمم وتنام العقول إلا من أجل الشيطان فتصحو وتعيث في الفكر فساداً والعاقبة عندئذ للأبالسة والمجانين.

نرى في كل أمة توشك أن تنهار وتنهدم مسألة الاختلافات والقرآن يوضح تلك المسألة ويقول ان الله عندما عصى بنو اسرائيل موسى ولم يعملوا بما جاءهم به قطعناهم في الأرض اثني عشرة أسباطاً أمماً حتى ولو كان عددهم كالسبط قليلاً إلا أنهم اختلفوا وصار من كل سبط أمة ذليلة ومن بعدهم اختلف اليهود فصاروا الى ما صار عليه حالهم تمزقاً وهواناً على الله والناس. وكل ذلك مردّه الى النفس المادية التي تلبست بقلوبهم وعجزت قلوبهم عن ادراك الوحدة الأخلاقية التي يدعو إليها المنهج الأخلاقي الروحي.

وها هو حال أمة الاسلام والاختلافات في الملل والنحل والطوائف. كل ذلك ليس مرده ظاهرة صحية للمنهج الأخلاقي لأنه واحد لا يتجزأ وانما هي الأهواء وينابيع عشق المال والبنين زينة الحياة الدنيا وأن ذلك ليس من عقيدة الآخرة في شيء.

حدثني الدكتور كامل البوهي عن مقولات الشيعة والسنة وغيرهم من المذاهب حتى قال ان هناك نصوصاً في القرآن تخفيها كل فرقة وان ذلك دلالة صحيحة على أن تلك الأمة ليست في طريقها الى الزوال وانما هي قد زالت بالفعل وأصبحت رجل العصر المريض الذي تتخطفه الدول والقوى الناهضة الأخرى.

لم يعد هناك وقت للتعام وإخفاء الحقائق عن الناس ولا بدّ من مكاشفة الناس

بحالهم التي صارت في النار وهم لا يعلمون لأن بين الكهانة الدينية من يستفيد من هذه الأوضاع وعلى حسابهم بوسع من سلطان الأمبراطورية التي تعمل باسم الناس وهي من ألدّ الأعداء لهم.

ان المادية التي نرفضها في الغرب والالحادية التي نلعنها في الشرق أفضل مما نحن عليه وأقرب الى النهج الروحي مما تدعيه باسم الاسلام والدليل على ذلك اين القيم الحضارية والانسانية في أمة الاسلام؟ أغرب الادعاءات بالتحضر ما ينسب إليه المصريون خاصة تفوقهم وعراقتهم مما تكشف عنه الآثار المصرية القديمة وهي إن دلت على شيء في علم الأخلاق انها اللاأخلاق. ورغم ذلك يعشق المصريون النسب الى تلك القومية والغرض الدفين هو عشق المادية واليهود يرفعون مقاماتهم بين الناس بالنسب الى ملك داوود وسليمان ويستخدمون كل الحيل والسحر وما شابه ذلك من وسائل تضليل الناس ليقيموا ملكاً مادياً فقدوه وسلطاناً شيطانياً غرب عنهم. وهذا كله ليس من صحيح الايمان أو خالص الدين:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠١).

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠٢). البقرة

هذه ظاهرة انحلال الأمة يوضحها القرآن عند أزمان الانحلال والضعف فيلجأ الناس الى الأساطير والخرافات والسحر في غياب العقل ولا يبقى لهم من الأمة إلا الحسب والنسب والأقاويل وما لا يمتّ الى دنيا الواقع بصلة فيشتغل عامتهم بتحضير

الجن كما نرى في كل قضايا النصب والاحتيال ويشتغل خاصتهم بتحضير الأرواح وينادي قادتهم بأنّ لهم في الحضارة سبعة آلاف سنة وهو يعلم مقدار ما تنطوي عليه تلك المقولة من نفاق.

يترك الناس القرآن وما يدعو إليه من المنهج الروحي ويتبعون منهج الفرعونية الذي كان سبباً في هلاك قوم فرعون والحضارة المصرية القديمة.

انما يتضح لنا من ذلك أن الناس في غياب العقل الراشد لا يبقى بين أيديهم إلا مذهب الغي والذهان وهذه علامات انحطاط الانسان وفقدانه للخصيصة الوحيدة التي تفرق بينه وبين القردة والخنازير أعني من ذلك فقدان الناس للضمائر الحية التي تعمل من أجل الرقي الخلقي والسمو الأخلاقي وموت الفكر أمام الأسطورة والسحر بقرب النهاية التعيسة للأمة.

يكشف القرآن عن عقلية المادي تلك العقلية التي لا تتقبل ولا تفهم حياة الأخلاق ونحن نعلم أن بناء الأمة يتطلب الديالكتيك ولا يفهم هذا الديالكتيك بمعناه المثالي والتجريبي إلا الذين أولوا الحلم والرشد، وهذا الأمر يكشف القرآن عنه في مسألة الناسخ والمنسوخ من الآيات وان القرآن قد أورد تلك القضية بين موضوعات تحليل المشكلة اليهودية وحذر الاسلاميين من الخوض فيها ليبين أن النسخ أمر ضروري في بدء الدعوة. وهذا ما يقضي به العقل ويقرّه الوحي والنضج في وضوح الرؤية أمام صاحب الدعوة والطاعة في الكوادر أمثال الصحابة والحواريين وغيرهم ضرورة وترك الأمور لأصحابها واحترام القادة ومن على شاكلتهم. يبين لنا أن القرآن يعلم اختلاف الناس في تقدير الأمور العقلية والآثار المترتبة عليها وهذا النظام ضرورة للاستقرار في نمو الحركة الفكرية دفعاً للتناقض وجلباً للوحدة الفكرية والعقائدية أيضاً.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٦).

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١٠٧).

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (١٠٨). البقرة

اليهود لعنة في الفكر ولعنة في الأخلاق ونعنة في العقل والعصيان والاختلافات طبيعة متأصلة فيهم وقبول المعقولات والروحانيات ليس له مكان بينهم ومسألة النسخ حدثت مع موسى من قبل ومع كل الرسل لأنها ضرورة عقلية وفكرية وما يصحّ لمقام لا يصحّ لآخر والحركة صفة حتمية للحياة الاجتماعية والتطور أساس للكشف عما خلق الله من كمالات في الحس والعقل والمادة. وكل ذلك بقدر وملك الله. ولا يستطيع الانسان أن يخرق الفطرة التي فطر الله عليها ولا يصح للناس أن تغفل السنن التي تحكم الوجود من حولهم. والنشوء والارتقاء قوانين ربانية في سريرة الكائنات ومنها العقل والنسخ صورة للتطور والكمال. وهذا الأمر بالذات هو الذي قتل الأمم وهو يقتل الأمة الاسلامية على صورة واضحة لأنها لا تتطور وفي كل يوم يقف الجلادون من أهل الجمود الفكري والعقائدي بتحريم الاجتهاد والأخذ بالنقل وتقديس التراث حتى ليقول القرآن في هذا الشأن:

﴿ وَتَأْكُلُونَ التُرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (آية).

والله هو أخذ التراث دون النظر فيه ومعرفة ما يناسب أو لا يناسب. وهذه هي عقدة الخوف والإرهاب الفكري تأخذ على الأمة طريقها وتسدّ عليها حركة التطور.

انهدمت أمة اليهود في التاريخ لأن الكهانة وقفت في وجه التطور والنسخ وأعمال الفكر والاجتهاد وكلها أمور تتجدّد الأمة من خلالها — وما قيام اسرائيل إلا بالتطور المبدع الذي لم يدركه أهل الأمة الاسلامية وهم يرفضون ذلك لمقولات لا اجتهاد مع النص وما علموا ان مسألة النسخ إنما هي مسألة التطور في النصوص والفكر المتطور.

ان الكهانة تحارب الفطرة التي فطر الله عليها القرآن والطور والأطوار وما يشير الى الأخذ بالجديد موجود في كثير من المواضع لكنهم لا يعقلون ولا يتركون غيرهم ليعقل ويفكر.

لا يجب أن ينشجب المتعصبون والمتطرفون لأننا نقول ان الأمة قد ماتت ونحن نقول لهم ان الله يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير وما القيامة في المسيحية إلا نهوض أمة المحبة والأخلاق من بعد موت الفساد والفكر.

اذا كان الفكر يدعو للتأمل في آيات الله فأولى بهؤلاء وهؤلاء أن يتأملوا واقع أمتهم ليعرفوا مواطن الأدواء وكوامن العلل والأمراض لكن الفوضى بالأهواء والعنف ترجع بالأمة الى طبيعة التوحش والغابة. وهذه من علامات غياب الناموس وضياع قضية الروح في الانسان.

قد يكون لرجل الدين رأي وهو بالضرورة تخصصيّ والتخصص يجافي الكليات لطبيعة الجزئية ولا يصح أن نقول في العموميات ما نقوله في الخصوصيات وكل حادثة وردت في القرآن كجزئية صارت في الفكر القرآني عمومية ومبدأ. وهم يكرهون العموميات والتعميم ويقول بالشريعة في مواجهة العقيدة. وهذا يوضح لنا عجز الفقه الاسلامي عن بلوغ أهداف التطور والارتقاء.

اذاً لمَ الحاجة التي وضعتها للمصلحة فاقلب البيت رأساً على عقب علك تجد حاجتك والبحث في مثل تلك الحالة شيء طبيعي والله يقلب الليل والنهار ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها ويهلك الأقوام والأمم ثم يقيمها مرة أخرى وفعل الله الأبدي أن يرفع قوم ويخفض آخرون وعسى أن تكون عند ظن الله ونصير بأنفسنا ثم يأخذ بيدنا الى طريق النجاة.

ان الخطيئة ملأت الأرض عاراً ولا يمكن أن يدرك العقل فضيلة من الفضائل إلّا من خلال فساد الناس في الأرض. وهذا القدر المكتوب على العقل له حكمة إلهية كبرى هي بالضرورة ادراك المثل من خلال التجربة الواقعية في المحسوسات وكل

المعقولات والفضائل بدأت من طين المستنقع الذي نبت فيه آدم منذ الخلق الأول وبالتطور يسير البشر انساناً من روح الله. وهذه الفلسفة التي لا تفيد شيئاً هي في الواقع بداية نظرية لا يصح الأخذ بها إلا بالتجريب وخلق الأشياء من العدم والمعرفة هي ما جاءت من المخاض والمعاناة.

دأب القرآن في توضيح مقولات اليهود المقولة بعد الأخرى ليكون من ذلك بصيرة للناس بسلوكهم الفاسد. وفي عقيدتهم أن الدار الآخرة جعلها الله حكراً خالصاً باليهود فقط ولن يدخل الجنة من الأجناس الأخرى أحد لأن إله اليهود «يهوه» قد صنعوه بأيديهم وعقولهم المريضة فهو رهن ما يريدون. وهذا الاعتقاد انما ورثه اليهود من عقيدة العنصرية التي داخلت عصورهم التاريخية منذ ملك داوود وسليمان ولا بأس من جعل الدين في خدمة الأهواء.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ (١١١). البقرة

وفي الآية جمع بينهم وبين النصارى. والسبب وراء ذلك هو محاربة الدعوة الاسلامية ولا ضير من اشتراك النصارى منهم أما المسلمون فلا يدخلون الجنة.

لكن القرآن يكشف لنا موقفاً عقائدياً آخر هو تشكيك اليهود في الأديان الأخرى لتنهدم مقومات المجتمع الذي يخالطونه ومتى حدث ذلك بالفتن كانت لهم السيطرة والكلمة العليا عندئذ.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١١٣).البقرة

هذه القضية من صراع الأديان يكشفها القرآن لنعلم ان الاختلافات ليست من

صحيح الدين وانما تنبت تلك الاختلافات من الأهواء والأغراض الدنيوية والشهوات المادية ولا يمكن أن يكون الكتاب السماوي الذي نزل على موسى وعيسى ومحمد (صلعم) محلاً للتناقض وانما هو التطور بالنسبة للبيئة وللزمن. ولذلك اختلفت الشرائع وبقيت العقائد واحدة كما نراها في الايمان بالواحد والدار الآخرة — والمساواة بين البشر جميعاً والحرية للناس وما شاكل ذلك من المثل الروحانية العليا وعند تطبيق تلك المبادئ تقوم الأمم وتختلف وكلها تتسابق الى الخيرات ولا يصح أن يقذف أهل دين أهل دين آخر كما يفعل العنصريون.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً﴾ (الآية).

في عقيدة التوحيد تكمن الأسرار الالهية الكبرى والتاريخ الديني كله ما هو إلا حلقات للبحث عن تلك العقيدة والانسان بما هو من ادراك صار يبحث عن العلل وخاصة تلك العلل الغائية المتعلقة بمصيره واكتشف بالمعارف أن هناك سنناً تحكم الأشياء من حوله. وهذه السنن تدفع عن الوجود الفوضى والعدم فأين المصير المنتظر وهذه النقطة بالذات هي التي دفعت بالخوف الى قلبه خاصة وان ظاهرة الموت تملأ عليه البيئة من حوله وأخذت الديانة تأخذ طريقها الى عالم الانسان.

نشأ الضمير الديني مختلطاً بالعوامل الأخرى ومنها احتياجات الانسان وحبه للسيطرة وخوفه من المجهول. وعندئذ لم يكن لديه من العلم الصحيح ما يمكنه من الأسباب والحقائق ولذلك لحق بالديانة مقولات الأساطير والخرافات والذهنيات وأعمال الخيال الشارد وكل أمراض العقل والنفس والمنطق في بحر الجهل، نشأ التوتمية وعبادة الأصنام والوثنيات بكل أنواعها والأسحار والشعوذة والديانات الروحانية أمثال الهندوكية والبوذية وغيرها من تلك الديانات التي تقوم على الروح الخالص، ثم جاءت الديانات السماوية وأساس عقيدتها التوحيد.

ان اختلاف القدرات العقلية للانسان وبلوغ الأطوار للادراك يختلف من فرد الى آخر وجد دليل على ذلك أن الأنبياء والرسل ينص عليهم القرآن أنهم ما هم إلا بشر اختارهم الله لحمل الرسالة وخصهم التطور الخالق سبحانه وتعالى بإمكانية

عقلية هي تلقي الوحي السماوي. وهذا الأمر يؤكد لنا ان القدرات البشرية ليست واحدة في مجال الفهم والادراك. والدليل الماضي أكدتهم اختبارات الذكاء التي تجربها المختبرات النفسية وأظن أن تلك بديهية يجب التنبيه إليها لأن عقيدة التوحيد تعرضت لسوء الفهم والتشنويه بدرجة كبيرة. وخير دليل على ذلك ان ديانات التوحيد نفسها أخذت بالتثليث في الجسم. وما حدث ذلك إلا لعدم مقدرة الناس على استيعاب ما جاءت به الديانات التوحيدية. ولهذا فإن القرآن راح يشرح لنا قصص الأقوام وقصص الأمم رسالات الوحي السماوي ونبوءاته على يدي الرسل ليصل من ذلك الى النهج السليم لمعنى التوحيد وما يجب أن يكون عليه صحيح الدين وراشد الأخلاق والخلق.

لقد رأينا أن الدين قد اختلط في العقل البشري بموضوعات العلم وكان من ذلك السحر والشعوذة واختلط بموضوعات المنفعة. وكان من ذلك العبادات الصنمية على اختلاف أغراضها واختلط بموضوعات الأخلاق فكان من ذلك القرابين والأضحيات البشرية وغير البشرية واختلط بموضوعات البحث عن الوجود فكان من ذلك ديانات الخلوص الروحي والنرفان والبحث عن الخلود والديمومة وتعشق الانسان وسعيه الدؤوب إليها. واختلط بموضوعات النفس فكان من ذلك الضمير وما يمليه على الناس من التحليل والتحريم.

هذه الموضوعات كانت عاملة في الدين كلها ولم يستطع الانسان الفصل بين الموضوع والآخر لأن المنهج العلمي لم يكن قد وصل إليه الانسان بعد. ولذلك نرى التوحيد في القرآن يقدم لنا الرسل ونبوءاتهم وعندما نتفحص تلك النبوءات نجد بعضاً منها في علم المعرفة وما يجب أن تكون عليه القواعد الصحيحة لهذا العلم كما جاء في نبوءة نوح ونجد البعض منها في العلم والأخلاق كما جاء في رسالة ونبوءة ابراهيم «ع». ونجد البعض منها قد جاء في علم الاجتماع كرسالة «موسى وعيسى ومحمد (صلعم) ونجد البعض منها في علم الفطرة والسنن وما تقتضيه من السلوك كما في رسالة «لوط» وغير ذلك من الرسالات والنبوءات. وان هذا الأمر اذا أخذناه بعين البصيرة وجدناه ينصب على قضية الانسان نفسه ومشكلة خلقه للمعاني في مواجهة ما خلق

الله منها وان القرآن يريد أن يقول لنا أنه ما دام الانسان في العقل النظري هو خالق كالله سبحانه وتعالى. فقد جاءت الاختلافات بين الله والناس في أمور كثيرة ستكون لها نتائجها وعواقبها الوخيمة. ولذلك يتطور الحيوان ويستقيم وينسجم سلوكه مع الفطرة والانسان بعكس ذلك تتهدم القوميات والأمم والحضارات بين يديه لأنه قد اختلف مع الفطرة ولم ينسجم سلوكه مع ما خلق الله من المعاني وكان الشيطان للانسان عدواً مبيناً.

يبعث الأنبياء والرسل الى الناس فيجد الرسول أو النبي أن الناس قد ساروا على نهج يخالف الطبيعة والفطرة فيوحي إليه الله أن هذا النهج ليس هو النهج السليم للسلوك. وخبر ذلك قوم لوط يباشرون الجنس مع الذكر رغم أن الله في صورة الخلقة قد أوضح للناس أجهزة الذكورة من القضيب وغيره ورغم ذلك يفسق الناس ويباشرون الشذوذ ويخالفون الناموس الطبيعي ويعاندون الفطرة. لذلك أوضح لهم لوط أن الشذوذ الجنسي ضد الفطرة وضد الطبيعة لأنه سيهلك المجتمع وأنه سيفسد السنة التي جرى الخلق عليها.

هناك مسألتان في غاية الأهمية: الأولى بينهما التوحيد في أنبياء المعرفة وهم أنبياء القوميات أمثال قوم نوح وقوم عاد وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم. وهذا المنهج كان التوحيد يريد أن يضع الانسان على طريق السنن والفطرة التي فطر الله الوجود عليها. وهذا الأمر يخص الآن «علم المعرفة» ونحن نعلم أنه علم صارم له قواعده وضوابطه والمختصون بشئونه. وما زال هذا العلم يتطور حتى الآن وكانت الرسالات السماوية في هذا المجال تريد أن يعرف الناس أن هناك من النواميس والسنن ما يحكم حركة الأشياء ويقودها الى طريق الحياة الزاهرة. ويجب على الناس الأخذ به والكشف عنه وتنموة أساليبه. وهذا ما يحدث الآن بغير دين وبغير رسل وبغير أنبياء لأن العلماء قد تنبأ لهم القرآن بهذا المقام الرفيع «العلماء ورثة الأنبياء». وهذا يعني انتهاء دور الكهانة وتسلطها على الفكر الانساني ويجب أن تخلي مكانها للوريث الحق لهذا العمل وأعني العلم وما يقدّمه للناس والحضارة.

أما المسألة الثانية الأخرى فهي تختص بأنبياء الأخلاق وهم أنبياء الأمم أمثال موسى وعيسى ومحمد ورائدهم الأول ابراهيم وان كان القرآن يقول لنا ان ابراهيم وحده كان أمة لأنه المكتشف الأول لدينا علم الاجتماع ودور ابراهيم ان الله أوحى إليه أنه لا يقوم مجتمع من الناس إلا ويجب أن يكون مبدأه الأول السلام حتى ينمو ويزدهر فإن فقد تلك الخاصية انهار كما انهارت القوميات من قبل لأن مبدأ السلام ينسجم مع الفطرة وراح ابراهيم بأمر ربه يبني بيت الله الحرام الذي أراد منه الله أن تكون بيئة السلام هي الطابع لهذا البيت الأمين وليعرف الناس المبدأ الأول في علم الاجتماع وأن فقدان المجتمعات لهذا المبدأ سيعود عليها بالوبال والفناء وها هو العلم الحديث يكشف لنا عن نظرية الصراع بين الطبقات وان هذه الظاهرة هي التي كانت سبباً في موت الحضارات تلو الأخرى وأمة بعد الأمة وان الناس لا يفهمون معنى التوحيد ولا معنى لا إله إلا الله وانهم لو علموا حقائق العقائد وما يعنى به القرآن لكان لهم من الله القوة والمنعة والتقدم.

ان العدو الأول للأمم هو معاداة التطور والله يقول للناس في شأن التطور انظروا للأرض فإن الله ينبت فيها كل يوم نبتاً جديداً وخلقاً متطوراً ودنيا الناس والأخلاق كل يوم في شأن والذين ينادون بالرجوع الى الوراء يساهمون في صنع النهاية المنتظرة للأمة حتى وإن كان ذلك دون وعي.

ان المشكلة ليست مشكلة الله والفطرة وانما هي مشكلة الانسان وخاصة الانسان المادي الذي لم يبلغ به الطور الروحي مداه. ولقد رأينا القرآن يطلق على هذا الانسان المنحطّ في الخلقة القردة والخنازير وهي أطوار حيوانية سبقت الطور البشري وهي تتلبس بالانسان المادي ولا يستطيع تجريد المحسوسات ولا يدرك المعقولات ولذلك قال اليهود لموسى أرنا الله جهرة واجعله يكلمنا مثلما نتحدث الى بعضنا البعض ولم يدركوا ما وراء الطبيعة وغاب عن وجودهم عالم المثل والأخلاقيات ودرجوا في الحس مدرج الغريزة. والوعي يختلف بين الانسان والحيوان اختلافاً بيّناً ولهذا لا يصدق ولا يؤمن الذين لم يعرفوا خبايا أنفسهم. والتجرد عن

الشواغل المادية يكشف للانسان عن هذا الكائن الروحي العظيم في النفس. ولذلك رأينا الله يقول لموسى :

﴿ ٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾.

و بين الله له الطريق الى هذا العالم السماوي والنفس وما تأمر به والجسد وما يتطلبه هما الحجاب الحاجز بين الناس والله. ولهذا كان الماديون في كل أمة لعنة على الأمة والمعول الذي تتهدم به القيم السماوية في أهل الأديان وما نراه اليوم في الحضارات إلا بشير نذير وخراب ديار.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١١٨) . البقرة

وقولة اليهود المشهورة « أرنا الله جهرة » تكشف عن عقلية المادي الذي يرسف في أغلال المحسوسات والدناءة ولا يمكن أن يتصوّر شيئاً أو يدرك مفهوماً إلا اذا وقع في المادة المحسوسة لديه وان القرآن يوضح لنا هذا النمط من الخلائق ليكون لدى صاحب الدعوة علم مسبق بتلك العقليات السافلة التي حتماً ستكون أول من يكفر بالقرآن والأخلاق والمثل.

لو كان يعلم القائمون على شئون الأمة الأدواء التي تحيط بها من أبنائها وما يحكم الجبلة والطبع في أخلاقهم لحاربوا المادية في شتى صورها ما عدا كما قلنا من قبل انها ضرورة للعلوم والمعارف التجريبية لكنها من أشد العداوة للمجتمعات في المجالات الأخلاقية والسلوكية بل والادراكية أيضاً.

كل دين ينظر الى الدين الآخر نظرة الدناءة وعدم الهداية وضلال الطريق الى الله ، لذلك راح اليهود يشككون المسلمين في عقيدتهم قائلين لهم : إن كنتم تريدون الهداية الى الله فعليكم إما باليهودية أو النصرانية ليكون من ذلك قوة أهل الدين وغلبتهم :

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٣٥).

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣٦).البقرة

ينظر اليهود الى دياناتهم على أنها ملة دين له تاريخ في الحضارة الانسانية. فبين القرآن ان الدين الخالص عند الله هو ملة ابراهيم ودينه التاريخي الذي تبنّى كل ما أنزل من السماء الى الناس وهو يشمل جميع الأنبياء والرسل حتى ما أنزل على موسى وعيسى ومحمد لأنه ملة الكتاب السماوي كله ولا يمكن أن يؤمن الناس ببعض الكتاب ثم يكفرون ببعض. ولذلك لا يصلح أن تكون اليهودية أو النصرانية أو الاسلام هي الدين الخالص وانما الدين الخالص كما يبين القرآن هو الدين العالمي لكل الرسل وكل الأنبياء وما على الناس إلا الأخذ بالتطور وما تقتضيه الحال ولم تكن ديانة ابراهيم إلا ديانة عالمية ودلالتها هذا البيت الحرام وما يبدو تقديس المكان وسلامة ما حوله ولم يدرك المسلمون هذا الأمر الخطير إلا أن يكون الدين الآن في خدمة العصر المادي الذي طغت ظواهره على سلوك الناس خاصة والرفاهية والترف أصبحت المبدأ الأول لمظهرية الحضارة والحكم عليها.

من أغرب القضايا التي لم يستطع مفكرو الأمة الاسلامية أن يربطوا بينها هذه المناسبة التي وردت فيها مسألة النسخ وتغيير القبلة اذ جاءت الآيات التي نزلت في هذا الشأن في سياق تصدي القرآن للعنصرية اليهودية وانهم شعب الله المختار وورثة الأنبياء وحدهم وان دياناتهم هي الديانة العالمية المنتظرة فكان من ذلك كله نزول الحل المثالي لمثل تلك المواقف التي تقفها الأمم على عتبة المنهج ونزل الوحي السماوي يقول لمحمد (صلعم) والمؤمنين أن الأمة التي سينشأ عليها الاسلام مجتمعة لا بد أن تكون أمة وسطاً خالصة من شوائب التطرف العنصري مؤمنة بالعالمية وانسانية أهل الأرض وسلام الجميع :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٤٣). البقرة

أي ان الإسلام لا يمكن أن ينشئ أمة تنحاز الى اليهودية أو الى النصرانية وإنما هو وسيط بين الناس جميعاً ينادي بالعالمية والسلام بين الأمم وان ذلك هو النهج السماوي ضد التطرف العنصري لأهل الكتاب الذي لم ينزل بالرسالة إلا لسعادة جميع أهل الأرض على الكافة والذين ينادون بالشعوبية أو القومية أو الأممية إنما يعملون ضد ما يريده الله ويرعاه.

هذا هو الخلاص من صراع الأديان والأمم والحضارات يضعه القرآن بين أيدينا ليكون من المنهج الروحي والسلام العالمي بشارة للجميع ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى وما كانت ملة ابراهيم ومن جاء من بعده إلا هذا المنهج أما ما يدّعيه أهل الكتاب من الفضل والتعالي على خلق الله انما هو من قبيل الأهواء والذهان وانعدام المعقولية والسفه والغرور بغير علم أو كتاب منير.

كانت تنزل الآيات البيّنات بوجوب انتهاج المنهج السليم نحو الله فيخفي أهل الكتاب تلك الآيات عن الناس حتى لا يأخذهم الناس بسلوكهم الفاسد ولذلك يقول القرآن أن لعنة الله على من يكتم ما أنزل الله من الآيات التي تدعو الناس الى السلام والرحمة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ (١٥٩).

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١٦٠).

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (١٦٣). البقرة

هكذا يكشف لنا القرآن عن المنهج وان الانسان لو أراد أن يكون له إله فإن هذا الاله لا بدّ أن يكون الرحمة حتى قال محمد (صلعم) أنه هو الرحمة المهداة الى الناس ثم يقول القرآن في مواضع شتى بالقصر اللغوي :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

والعنصرية تخلو بالطبع من الرحمة واليهودية والنصرانية كدين عنصري لا يمكن أن يكون ديانة توحيد الاله فيها واحد وانما هو الأهواء والأغراض الدنيوية الشريرة وانهم لو تبصروا فيما خلق الله للناس لعرفوا أن الخالق يريد الرحمة في كل خلق جعلها في خدمة الناس.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤). البقرة

ومن ذلك نتبين أن الله يريد الرحمة للناس جميعاً وهو لذلك يخلق ما ينفع الناس ويسخر كل شيء في مصلحة البشر ولا يعرف العنصريون ذلك ولو عقلوه لعرفوا ما يريده الله ويتبنّاه.

لكن العنصريين يريدون القوة والطغيان المادي ولم يعرفوا أن القوة مصيرها بين يدي الله وحده :

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ (١٦٥). البقرة

لو قرأنا تاريخ الحضارة لوجدنا أن القوة المادية لم تكفل للأمم البقاء ولا الاستمرار وكان قوم هود يعشقون القوة المادية حتى أنهم كانوا ينحتون الجبال بيوتاً

فارهة ونزلت كلمة السماء على هود تقول له ان القوة المادية لا تبني الأمم وانما هي القوة الروحية ولذلك دعاهم أن تكون القوة لله ومن أجل الأخلاق السامية وفي خدمة الناس على الكافة فإن لم تكن القوة في هذا الموضع كانت وبالاً عليهم واليهود عبدة الطاغوت منذ كانوا عبيداً في مصر الفرعونية لأنهم رأوا أسيادهم يقيمون المجتمع على هذا المنهج وما عرفوا أن قوم فرعون سيهلكون وسيكون الفرعون نفسه عبدة للتاريخ. والغريب ان هلاك الفرعونية كمنهج للمجتمع جاء في زمانهم وبين أيديهم اذ أرسل عليهم الله الأمراض الاجتماعية التي تقول عنها الآيات :

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ والقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ...﴾ الآية

وما الجراد إلا نقص الانتاج وما القمل إلا التطفل إذ كان السادة لا يعملون وإنما تعمل طبقة العبيد من بني اسرائيل وما الضفادع إلا ضياع الوقت في الكلام حيث تمضي الضفادع الكثير من الوقت في النقيق وما الدم إلّا الصراع الطبقي والطائفي. وكان نتيجة تلك الأمراض انهيار الحضارة المصرية القديمة وهلاك الفرعونية كمنهج وافلاس المادية كفطرة يركن إليها الناس. والقرآن يبيّن لنا أن في الانسان طَوَرين. أحدهما : الطور الأيمن الروحي الخاص بالقيم الفاضلة والأخلاق النبيلة والانسانية الراقية والآخر خاص بالمادية ويتضمن استيطانه أعمال الأبالسة والشياطين وما يأمران به من الغرائز والهوى ولذلك يقول القرآن ان وعد بني اسرائيل للقاء بجانب الطور الأيمن ولكنهم فضلوا عليه هذا الجانب المظلم في النفس المادية فلم يلتقوا بالله ولا بالقيم ولا بالأخلاق وكان هلاكهم مع من سبقهم من الأقوام والأمم :

﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ (بني إسرائيل) جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنِ...﴾ (الآية).

ولم يكن موسى إلا طوراً كريماً من هذا الجانب ولكنهم درجوا على المادية فرفعه الله فوقهم وأعلى من شأنه بينهم ورغم ذلك تمرّدوا عليه وطلبوا من هارون في غيبته أن يكون لهم إلهاً مادياً كما للأمم المحيطة بهم. وتمرد السامري وخروجه على تعاليم موسى وصناعته العجل من الذهب ليكون لهم معبوداً هو ذلك

الأمر الذي أوضح لموسى أن الجبلة المادية الغريزية التي تعمل من باطن القوم أشد وطأة عليهم من دعوته فيهم. ولذلك نراه في نهاية الخروج يعتزلهم ويموت وحيداً دون أن يتحقق بينهم المنهج الروحي الذي أراده الله لهم:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمِ الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ (الآية).

هذه النهاية لقومية اليهود وأمتهم يبينها القرآن ليعرف المسلمون أن المادية قاتلة الأمم والحضارات وهي كما رأينا تتلبس بالانسان مجرى الدم من نفسه وليس سهلاً أن نحرر كل الناس من الابليس والشيطان. وهذا الطور الحسي في الشعور والغرائز تأخذ على الانسان طريقه نحو الرقي والسمو الحضاري بما يخدم الأهداف العالمية والانسانية التي تكفل السعادة للجميع.

في كثير من السور القرآنية والمواقف الاجتماعية التي يقدّمها يقرن القرآن المشكلة الأممية ومقولات أهل الكتاب بقصة الخلق وهي القصة التي تقول ان الانسان خلقه الله من طين المستنقع ويبين لنا ان الابليس والشيطان يسكنان النفس البشرية ويعملان في دم الانسان وباطنه والشيطان يرى الانسان هو وقبيله والناس لا تراه:

﴿وَيَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ...﴾ (الآية).

ويشرح القرآن الغواية التي يتعرض لها الانسان من ذلك التلبّس والفعل البشري والسلوك الخارجي يجيء صورة لما يدور في نفس الانسان بين تلك القوى المنحطة والقوى الروحية العاقلة. وهذا التحليل يأتي في قصة الخلق مرادفاً للمشكلة اليهودية وغيرها ليكون للإسلاميين دراية بما تحدث العوامل النفسية والطورية وتأثيرها على المجتمعات وان هؤلاء الأمم قد كان لعدم معرفة الناس بهذه العلوم النفسية والقرآن يريد من ذلك بناء الوعي بأهمية التربية الروحية ضد ما يسوله الأبالسة والشياطين وإن ادراك العلة يوفر للناس الوقاية منها ولم تأخذ الدراسات هذا الجانب في فكر القرآن قسطها من العناية والاهتمام ولذا غاب المنهج التربوي عن الأمة واعتقد الفقهاء أن الشرع غاية القرآن وليس الأمر كذلك إذ الشرح مرحلة كانت ضرورة لقيام الدولة لكن الشرع لا يبني أمة وانما يبنيها المبدأ وما يقتضيه من الفهم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٦٨).

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦٩).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠ / البقرة).

داء آخر تكشف عنه الآيات ينخر في عقل الأمة ولا يكف الناس عنه والتقليد والسير على نهج الأقدمين مشكلة ورثها الانسان في الطور الأول عن الحيوان الذي جاء منه وفي القردة تتبدّى لنا الظاهرة بجلاء تام إذ ما يكاد يحدث السلوك إلا ويتخذه القطيع مبدأ للفعل دون تحليل لأنه فعل غريزي أسهل للعقل البدائي أن يتبناه والقرآن عندما يأخذ بالتطور والكمال يعادي التقليد والآباء في هذا الشأن أعداء للعقل وما تقتضيه المدارك والوعي. ولذلك نجد اليهود وأهل الكتاب يردون على دعوة محمد (صلعم) لهم قائلين: ما حاجتنا الى كتاب جديد ودين جديد ومنهج الآباء يكفينا وهذا المنطق يرفضه القرآن لأن الفعل الموروث والتراث تداخله الخرافات والأساطير والناس يعمل الأبالسة والشياطين والهوى في عقولهم ولا يدري الانسان بعد ذلك صحيح السلوك أو راشد الادراك من فاسده والنقد الضمانة الوحيدة والشك المنهج السليم واليقين لا يبلغه الناس إلا بالوعي والآباء لسد الطريق على عقول الأبناء. فلا تنبيه للقدرات المبدعة في الأجيال وهذا الأمر تنبه له القرآن فقدم سورة «لقمان» ليوضح الحدود التي يجب على الآباء أن تقف عندها وتترك للأبناء أعمال العقل حتى ليقول القرآن ان الموعظة هي فقط المسموح بها وللآباء على الأبناء التكريم الواجب ورغم ذلك التكريم فلا يحق للآباء أن يكونوا أوصياء على العقل أبداً. والله وحده هو الذي يرعى الأبناء ولهذا الأمر خلق الله لكل فرد من

الناس رباً يرعاه بالخصوص ويقوم على شئونه. وان سورة «لقمان» عندما تحصر فطام الانسان بعامين فإنها تحدد فترة الحضانة التي بعدها يستطيع الأبناء عن طريق ربهم أن يعتمدوا على أنفسهم وطول فترة الحضانة حتى يصير الطفل شاباً يافعاً وهو لصيق بالأب ضرر كبير ما بعده ضرر، لأنه سيجعل من الابن أمعة لأبيه ونسخة شائهة لكل سلوك أبوي مريض. والأمراض النفسية والفعلية والاجتماعية يستفحل أمرها وتصير الأدواء مستعصية ولا ينفع في الناس قيام نبي ولا دعوة رسول.

لذلك كانت حكمة لقمان أن يربّى الأبناء في الصغر على الأخلاق الكريمة ومنهج الله لأنه لا ينفع رسول متى صاروا كباراً وجميع الأقوام كذبت رسلهم وقتلت أنبياءهم والكفرة تملأ الأرض ولا يمكن أن يؤمن الناس متى شبوا وهم لا يعرفون الله والفضيلة.

وادراك القرآن لتأثير الآباء يفتح علينا مشكلة الأجيال وتقادم المعارف ودخول الخرافات والأساطير الى دنيا الوعي فيصير الناس على دين آبائهم بغير دراية. ولذلك رأينا اليهود يضعون المحرفات من أعمال العنصرية والهوى والأسطورة في الدين محل العقائد ومقام الديانة. والدليل على ذلك نزول سورة «الكهف» لترد على الخرافات والأسطورة والشعوذة التي بثوها في ديانتهم وسألوا عنها محمد (صلعم) ليكون من الأجابة عليها دلالة صدقه وتأكيد اتصاله بالسماء.

سألوه عن أسطورة أهل الكهف وقالوا انهم ناموا في الكهف ثلاثمائة سنة بل وحددوا المدة بالدقة فقالوا إنها ثلاثمائة وتسع من السنين فكان نزول الوحي بأنهم لم يكونوا نياماً بل كان مغشياً عليهم من الرعب والخوف الشديد ثم انهم لم يلبثوا في تلك الحال إلا سنين معدودة هي عمر الكلب المرافق لهم وان اليهود يضعون الأساطير في التوراة أمثال تلك القصة ليأخذوا على الناس عقولهم ودهشتهم ودياناتهم أيضاً ثم يكون من ذلك سيطرة لهم على الأفهام والدين معبود الناس في كل حال وما يقوله الكهان هو من عند الله وما الأمر كذلك اذ يرد القرآن على هذا التضليل فبين أن الدين نزل من السماء بغرض محدّد هو محاربة المادية لأنها تجعل الناس يكفرون بالله

والقيم الروحانية ولذلك تقول سورة «الكهف» بعد تفنيد أسطورة أهل الكهف بالعقل والمعرفة الصحيحة:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ (٣٢).

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ (٣٣).

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤).

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥).

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ (٣٦).

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ (٣٧).

﴿لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٣٨). الكهف

هكذا يقول القرآن لمحمد (صلعم) اضرب لهم مثلاً في هذا الشأن بأن الدين ليس ما يقدمونه من أسطورة وخرافة وانما هو الصراع بين المادية التي تستمد أسباب وجودها من المال والبنين والروحية التي يريدها الله للناس سلاماً وأمناً وأنهم ليسوا على الدين في شيء وانما هي العنصرية المادية التي تسعى دائماً الى القوة والطغيان والدين أداة لها في دفع الناس الى ما تريد وأساليب الوصاية على الناس وعقولهم لا تنتهي والمكر السيِّئ طبيعة وريثة للانسان منذ القدم وكل المبادئ الرفيعة في الناس تتعرّض لهجوم الأبالسة والشياطين وورثة القردة والخنازير وعبدة الطاغوت.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٧٤).

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ (١٧٥).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (١٧٦). البقرة

المسألة كما نراها بين أيدينا يضعها القرآن في موضعها الصحيح وهي ان الديانة الحقة التي لا يمكن أن يختلف عليها أهل الأمم والناس أن الله أراد من الانسان أن ينهج المنهج الروحي وأن ينأى بمصيره عن المادية والشياطين والأبالسة وأهل الهوى والغواية والشهوات الغريزية وكل ما يناقض العقل ولذلك يقول لليهود في مسألة انكارهم تغيير القبلة ان العبادات نفسية هدفها الوحيد طمأنينة الفرد ولكنها ليست الدين لأن الدين علاقة اجتماعية تقاوم الطغيان المادي للأفراد وهي بذلك الحارس الوحيد للمجتمع ضد فساد ابليس والشياطين:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (١٧٧). البقرة

أين الأمة الأسلامية من ذلك ان الاسلام بزعم الكهانة الدينية يعادي الشموليات التي تسوي بين الناس في المادية ويزعمون ذلك بقتل روح الانسان

حيث يقولون ان حرية الانسان لا تتبدّى إلا في البيع والشراء والملكية الخاصة وصراع المال والبنين وما شابه. وهذا بكل المعاني التي وردت في القرآن العدو الأول لله وصحيح الدين وخلوصه.

ان موقف اليهودية وأهلها يتضح من المقولات والعقائد التي وراءها وفكر القرآن لا يمكن أن يكون بين أيدينا إلا من خلال دراسة كبيرة لهذه القضية. وليس كتابي هذا إلا نقطة وبداية ويجب على كل مسلم قادر على العطاء بالكلية أن يجعل القلم في خدمة تلك المسألة لأنها كما رأينا الدين الحق والايمان الصادق بالله سبحانه وتعالى.

لا يتحدث القرآن في مسألة بنيان الأمة إلا بالنقد والتحليل وعندما يقدم عقائد أهل الكتاب وأهل الكفر وأهل العصيان والفساد انما يريد أن يقول لنا ان كنتم تريدون أمة صحيحة الجسم سليمة العقل فعليكم بهذا المنهج وهو كما رأينا في مشكلة أهل الكتاب يقدم لنا منهج المعرفة السليمة ومنهج العقل الخالص وراح يقدم لنا من خلال القصص القروي والقصص الأممي فلسفة التاريخ وقدم نقد الدين الحق ووضع له مقوماته ليكون من ذلك كله رشد الأمة وصواب الادراك ووعي المجتمع الذي يريد الله أن يكون في العالم خير شاهد على فلاح المسلمين ونجاحهم.

في الكهف «يسأل اليهود محمداً (صلعم)» عن ذي القرنين وهو ما ادعوا انه طاغية ذهاباً منهم الى مثل ما ذهبوا فيه على ملك سليمان وغيره من ملوك القوة في زمانهم واليهود عشق لكل سلطان وقوة والأمر في حقيقته ليس لكذلك. ولهذا يقول القرآن في ذكر ذي القرنين انه ملك أعطاه الله الأسباب المادية فجعلها في الاصلاح حتى فتوحاته كانت في صالح الناس وقد اختار هذا الملك جانب الخير فلماذا يدعى اليهود تلك الافتراءات إلا أن تكون عقدة البغي والطغيان متأصلة في نفوسهم حتى أنهم يشوهون التاريخ ويصبغونه بما يريدون ويشتهون ولا يسلم منهم في هذا الشأن شعب ولا دين حتى نراهم يقولون في حق موسى «ع» أن هناك من كان يعلمه السحر ويرشده الى طريق السماء وادعوا ان «الخضر» كان المعلم لموسى وهذا يشابه قول الكفرة في حق محمد (صلعم) فقالوا انه هناك من الأعجام من يعلمه أسرار

القرآن. ولهذا الأمر شرحت سورة «الكهف» ان موسى لم يعلمه أحد وانما علم موسى ربه وفصل القرآن هذه العملية النفسية فجعل لموسى فتى وجعل له عبداً صالحاً يعلمه وجعل من موسى الباطن هادياً لموسى الظاهر ولذلك نرى موسى الباطن يعمل من خلال الغائية وموسى الظاهر يعمل من خلال السببية العلم اللدني يختلف عن العلم بالتجربة ولذلك اختلف المنطق لدى الاثنين في الحدث الواحد ولم يستقم الجمع بينهما ويريد القرآن أن يقول من خلال الموسوية ان علم الأنبياء يتعالى على افهام العامة من الناس لأنهم يأخذون كما أخذ موسى بالأسباب الظاهرة وهم غافلون عن الأسباب الباطنة التي هي العلة الغائية لكل فعل رسولي جاء من السماء.

أمة شاعت فيها العقائد واصطبغ الفكر بالأسطورة وجعلت الخرافة أساس المفهومات وحل بالعقل آفات الهوى وصرخ الشيطان في الضمائر بدلاً من سماع صوت الله والناس في أزمان انحدار الفكر لا تستطيع أن تميز بين صوت العقل وصوت الإبليس والدين مرتع خصب للآفات والسموم ولن يستطيع الناس أن يجدوا طريق الهداية في بحر الظلمات:

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ (٩٩). الكهف

يجب أن يكون الناس على درجة من الوعي بحيث لو ظهرت في الأمة أسباب الشقاق كان ذلك دليلاً أكيداً على ضياع الحق بينهم لأن الله عندما أنزل الكتاب «الكتب السماوية» أنزله بالحق وهو واحد لا يختلف الناس فيه فإن اختلفوا عرفوا أنهم على الباطل ولا بدّ من البحث عندئذ عن الأدواء والعلل:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (١٧٦). البقرة.

في أقسام سورة «البقرة» نجد أن السورة بدأت بمشكلة أهل الكتاب من اليهود ثم تلا ذلك عدة تشريعات اسلامية كالصوم وغيره ثم جاءت الآية الكبرى فيما يسمى

آية الكرسي لتختم هذه القضية الخاتمة السعيدة اذ تجيء الآية بعد بيان ان الله سبحانه وتعالى يفاضل بين الأمم لبلوغ الكمال وهو أيضاً يفاضل بين الأنبياء والرسل اذ انهم عند الله مقامات:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٢٥٣). البقرة

والاختلاف بين أهل الأديان اختلاف صحة وليست مرضاً إلا أن تكون بين أهل الدين الواحد ولذلك يقول القرآن في آية الكرسي ان الله هو الحي الأول الذي تستمد الموجودات حياتهامنه وهو القيوم الأول الذي تنمو الحياة للموجودات تحت عين رعايته. ولذلك فإن قولة اليهود انهم ورثة الله في الأرض وقولتهم انهم شعب الله المختار وانهم أمة الأمم. هذه المقولات ليس له أساس من الصحة والله ليس بنائم ولا تأخذ حتى سنة من النوم حتى يترك لليهود وأمتهم الفاسدة السلطان على الناس واليهود للناس أنهم سيتشفعون لهم عند الله ليسلبوا أموالهم بالباطل. وهذه المقولات الكاذبة الله محيط بها ولن يترك الأمر لليهود ليفسدوا وتكون من ذلك فوضى الحياة الاجتماعية وفساد أمر الناس ولن يعجز الله في الأرض تلك الفتن التي يثيرها اليهود وغيرهم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ...﴾ ﴿الآية﴾.

لذلك يضع القرآن تلك الآية في مناسبة سياسية غايتها فصل الخطاب بين أمة الاسلام الناشئة على الروحانية وتلك الأمة اليهودية التي انحرف بها الزمان نحو المادية وسيكون النصر حليف المسلمين لأن الله يرعى مسيرتهم. لكن القرآن لا يغفل القضية التاريخية لأن الصراع الانساني صراع ممتدّ ويتعدى اليهود والنصارى وأهل الأديان

الى باقي البشرية لذلك يضع القرآن حجر الزاوية في أصالة المجتمعات فيقول ان العبرة كلها تنحصر في مبدأ واحد هو الأساس لكل أمة ولكل دين وأصل كل عقيدة وأساس كل اعتقاد هذا المبدأ هو السلام ونبذ الطغيان :

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦). البقرة

ليس هناك اكراه في اعتناق الأديان لأن المعيار العالمي لما قد وضعه الله وبينه والسلام هو الذي يحكم بأفضلية الأديان والأمم والمجتمعات ولو وضعنا هذا المعيار وطبقناه على الشعوب الاسلامية لوجدنا ان الطغيان الطبقي والكائن فيها هو الأساس وهو الذي يحكم الحركة الاجتماعية بين الأفراد ولذلك انهارت الأمة ولحقت سابقتيها في التاريخ.

كان القرآن يريد أن يجعل من المسلمين ومجتمعهم القدوة للعالم لكن الأهواء ضربت جذورها في النفوس ولم يدرك الفقهاء والعلماء والقادة خطورة النزعة المادية وشغف الانسان بالترف وعشقه للقوة والطغيان وباسم الحرية الفردية ضربت القيم والأخلاق وغاب اسم الله من بين الأسماء وأصبح الشيطان رمزاً للعدالة والابليس مطلباً للناس.

يبين القرآن للمسلمين كيف يعمل الله على قلب الطغاة والأمم فيقدم قصة المحاجة بين ابراهيم «ع» والطاغية فيقول الطاغية انه يتحكم في أقدار الخلق وهو يستطيع أن يحيي ويميت مثلما يفعل الله فهل هناك رب للناس غيره؟ يوحي الله لابراهيم في الحجة البالغة فيقول له اذا كان الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها أنت من المغرب بحسب ما تقول وهو يقصد من ذلك ان الطغاة يتحكمون في ظاهر الحياة ولكنهم لا يتحكمون في باطنها وهذا الباطن حكر على فعل الله والله يأتي الموجودات من باطنها ولذلك لن يستطيع الطغاة الفساد والله لهم بالمرصاد. وهكذا يكشف

القرآن عن قدرة الله ليبين للناس أن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون وهذا انذار للمجتمعات التي تندرج بسلوكها المادي نحو الفناء دون أن تدري والغافل مَن لا يعرف سنن الله ونواميس الخلق والمبادئ الأولية التي أودعها الله في باطن الأشياء ولا يجب أن يقع في الأذهان أن المجتمعات ليست مخلوقات بل هي كائنات روحية أعلى في درجة الخلق من الكائنات المادية الجسمانية التي ندركها بالحواس. ومثل ذلك ما يفعله العقل مع الكليات أيضاً.

في قضية رعاية الله للخلق وقيامه على المجتمعات والناس تقدم السورة «البقرة» ثلاثاً من القصص الأولى محاجة ابراهيم للطاغية الذي قال «أنا أحيي وأميت» والثانية الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها والثالثة قصة ابراهيم والطير وكيفية إحياء الله للموتى. هذه القصص الثلاث أراد منها القرآن أن يقول لنا ليست الحياة من ظاهرها وانما تنمو الحياة وتزدهر من خلال عوامل باطنية بحتة والتطور كما يقول «لامارك» يأتي من باطن المخلوقات وليس من خارجها كما يدعي دارون ولهذا ينبه الله عزيز في هذا الشأن ويقول له: انظر الى طعامك انه هو ولم يتغير. ورغم ذلك تنمو الأجسام. وهذا دليل قطعي على التطور من الباطن اذ كيف توجد المختلفات من المتشابهات إلا بقدرة خالق من الباطن وإحياء الطير بعد تمزيقها أكد لابراهيم هذا الأمر أيضاً والزمن ليس مشكلة في عملية الاحياء وهو ليس عند الله كما هو عند الانسان. ولهذا قدّر «عزير» المدة التي لبثها يوم وهي عند الله مائة عام. وهذا يوضح لنا ان النواميس تختلف ولا بد أن يعرف الانسان القدرة الخالقة في باطن الموجودات ولا يقدّم القرآن ذلك إلا ليقول للمسلمين اعلموا ان هناك خالق مدبر للكون لا يترك وشأنه كما قال ملاعين اليهود والفلاسفة حيث قال الكفرة ان الله لا يعلم الجزئيات ولا يعلم ما يدور بين الناس في حياتهم اليومية. ولهذا أحلوا الحرام وحرموا ما خلق الله للناس وحتى قال اليهود ان الله، يأمرهم بالفحشاء والمنكر والأمر كله افتراء عليه سبحانه وتعالى.

ان من أجمل المعتقدات هذه العقيدة الاسلامية عند الشيعة أعني عقيدة «البداء» اذ ان تلك العقيدة لا تجعل لله حضوراً بين يدي عبده فقط:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ. ﴾(الآية).

لكن تلك العقيدة تقف لمقولة القضاء والقدر من حيث إجبار الناس على الفعل ان الله يمحو ما يشاء ويثبت ورغم ذلك فعنده أم الكتاب. وهذه هي قمة الحرية بالنسبة للانسان وما على الناس إلا العمل الحر ثم يمحو الله بالمغفرة ما كتبه ويدوّن لهم من الثواب ما يثبت صلاحهم ولو ان القضاء والقدر قيدا على حركة الانسان لكان من العبث حساب الناس لى الأعمال إنما أراد الله من القضاء والقدر أن يكون رحمة بالناس عند الخطأ والخطيئة فيرفع عنهم الشعور بالذنب الذي يقتل النفس ويدمر الضمير ولذلك لا يضع القرآن العقبات أمام التائبين أبداً والمغفرة والرحمة والمعاني السامية لم يخلقها الله إلا من أجل العصاة والمذنبين وكما أنه في عالم القانون توجد الأسباب المخففة للحكم كذلك أيضاً عند الله وليس الوجود الالهي في حياة الانسان إلا رعاية موجهة. أما من يصوّرون الله وقد أرسل على الناس جام غضبه لم يعلموا الحكمة التي نزلت من أجلها آيات العذاب وان ذلك ليس له قصد إلا التخويف والانذار والتبصير لمعرفة الأفضل في السلوك والأكمل في القيم.

ان هذا التحليل الذي قدمه القرآن في المشكلة الأممية والمشكلة الدينية والمشكلة اليهودية يضع بين أيدينا شيئاً خطيراً للغاية هو ذلك الايمان الذي يصطبغ عند كل أمة وعند كل دين وعند كل يهودي وعند كل نصراني وعند كل مسلم بصبغة ذاتية لا تمت الى حقيقة الايمان بشيء حتى نرى القيم والسلوك والأفعال تتناقض والله عند كل طائفة له صورة مختلفة بحسب الأهواء. وهذه الاختلافات في العقائد عن الله ذاتاً وموضوعاً وضعت أهل الأديان جميعهم في مأزق. وخير دليل على ذلك أن تلك الصورة التي وضعتها اليهودية لم تستمر والصورة التي وضعتها المسيحية لم تثمر والصورة التي وضعها الاسلام لم تنجح لأن القرآن أوضح لنا أن الأهواء والمادية غريزة في الانسان ومحاربة الهوى شيء يحتاج الى قدسية وهي للأنبياء والرسل. والمشكلة تنحصر اذن في القيامة على سلوك الناس والضبط المستمر لما يظهر من انحراف العامة والذي لا يقويه القرآن يقويه السلطان والتوعية من أجل الأمور لغسيل

المخ الدائم اذا أريد تنقيتها من الأساطير والخرافة وتطبيق المبادئ الروحية على عموم الناس والاهتمام بالمساواة وتزكية الأفعال والقدرة والمثل العليا لا تتحقق إلا بالنضال والكوادر مثل الحواريين والصحابة عمل قرآني من أعمال السياسة والعصر يتطلب العالمية والقدوة الحسنة خير اعلام واعلان والله مع العبد ما دام العبد في عون أخيه ولا يصح لانسان أن يقول على الله ما لا يعلم والالحاد ظلم والافتراء جريمة واليهود لعنة والمادية لن يكون وراءها إلا النار وبئس المصير. ليس من السهل مثال المثاليات وما يجري في العقل من الأفكار هو مشكلة الانسان وكل الموجودات عرفت طريقها الى ربها إلا الانسان إذ استطاع بما أوتي من الحرية أن يفسق عن أمر ربه وأن يكون له شيطان مريد وقمة الخلق يأتي بها القرآن في كل موضع جاء من عقيدة منحرفة ويذكر القرآن في تلك القصة أن منحرف السلوك الذي يجافي الفطرة هو من فعل الابليس. وهذا ما يجعل عمل العقل بين تلك الأضداد مهمة شاقة يقول القرآن فيها ان الانسان في كل موقف كادح الى ربه ويختبر فيه حتى يلاقيه وهذا الذي ترى الأنبياء والرسل يتعرضون له من قاسي التجارب والمحن هو الذي جعل من كل منهما نبياً أو رسولاً حتى لنرى القرآن عندما أراد موسى أن يتنحى عن حمل الرسالة الى فرعون الطاغية فيقول لربه: ﴿ أَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ لأنه أفصح لساناً. يقول له ان هارون لم يدخل التجربة وأنت بالذات المسئول عنها لأن ربك صنعك تحت رعايته حتى وأنت طفلاً ملقى في اليم ولا يصلح هارون لهذا الأمر.

ان من أشق الأمور هو صناعة الانسان وما بالك بالأمم وسلوك القطيع يتربص بالعقل وكل شيء يبدأ صغيراً ثم يستفحل أمره والعقائد وغيرها تبدأ بالوعي ثم تنتهي الى اللاوعي والانحراف والقرآن عندما يمس مشكلة أهل الكتاب انما يمس الحياة الانسانية كلها وهو لذلك الأمر يقدم للناس موضوعين في غاية الخطورة. الأول هو كيفية قيام الأمة العالمية وهذا نتبينه في جملة العقائد على هذا المنهج وهو ما أطلق عليه الاسلام وهذا يعني ان تلك الأمة لم تكن قد استكملت مقوماتها الفكرية والعملية لتكون قدوة للناس.

وهذا هو الذي يوضح لنا الاختلافات التي نراها بين القرآن المكي والقرآن المدني وهذا المجال مفتوح للمفكرين ذوي النيات الطيبة الذين يريدون للاسلام تقدّماً ورقياً.

الفصل الثاني
المقولات في سورة «آل عمران»

رأينا في سورة «البقرة» جاءت بآية الفرس الشهيرة في موضع التنبؤ بزوال سيطرة اليهودية كدين لأنها أصبحت بما دس فيها اليهود من خاطئ العقيدة وفاسد الايمان لا تصلح كمنهج ديني يدعو الى السلام. ولذلك راح القرآن يتزل الشرائع بعد آية الكرسي في سورة «البقرة» ولو تدبرنا تلك الشرائع لوجدنا انها شرائع روحية ضد مادية اليهود ودياناتهم وقتئذ وتتالت آيات الشرع في كل سلوك يتطلب من المسلمين السمة المميزة للأمة الجديدة التي ستولد بين أحضان أمتين سابقتين متهالكتين. وكل الدعوة في تلك التشريعات هي دعوة لترك الصراع المادي كما نراه في آيات الانفاق والحض عليه لأن القرآن يعلم أن الأحقاد المادية هي التي تمزق الأمم وهي التي تقتل روح الانسان وهي التي ترجع بالناس إلى الغابة:

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٦٨).

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٢٦٩).

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (٢٧٠).

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٧٤). البقرة

ثم يحرم الربا وغيره من السلوك المادي لليهودية :.

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (٢٧٥). البقرة

المادية اليهودية تقف في وجه التطور والقرآن يريد الروح. ولذلك بدأت الشرائع الاسلامية تنزل لتناقض ما عند اليهود نحو بناء الأمة التي ستكون قدوة للناس وبدأت التربية الروحية تنزل بالعقائد والشرائع وبدأ الاسلام كدين يأخذ طريقه للتنفيذ وهذه هي المناسبة التي نزلت فيها آية الكرسي في سورة «البقرة».

مر الزمن والمسلمون يبنون المجتمع الاسلامي الجديد في أدب وإصرار وفجأة وقعت معركة «بدر» وانهزم الكافرون أمام المنهج الروحي الجديد وأخذ الاسلاميون ومنعهم القيادي بين الناس فكان من ذلك انذار لليهودية وأهل الكتاب بقرب زوال سلطانهم وغياب عقيدتهم :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (١٣). آل عمران.

هذه الآية التي تتحدث عنها السورة هي هزيمة الكافرين من قريش وانتصار

المسلمين عليهم في بدر. لذلك نزلت سورة (آل عمران) لتكمل الرسالة التي نزلت من أجلها سورة (البقرة) انما يكمن الفارق في المضمون الاجتماعي في أن سورة (البقرة) نزلت لتمحيص العقائد التي سادت مجتمعات أهل الكتاب وما دسوا فيها من الخرافة والاسطورة والايمان الزائف. لكن سورة (آل عمران) انما نزلت لتبين من خلال القراءة التاريخية ان العنصرية عقيدة مادية وان بدت لنا في ظاهر الأمر أنها عقيدة دينية وهي ليست كذلك وان الشيطان هو الذي يزين للناس تلك الأفكار ليحقق من خلالها الهوى والشهوات:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ (١٤).

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ (١٥). آل عمران

لذلك لم يكن عجباً أن تأتي آية الكرسي أيضاً في سورة (آل عمران) لتبين لنا أن السياسة هي الخلفية التي اقتضت نزولها وان الموضوع ما زال متصلاً بين السورتين وان (آل عمران) انما نزلت لنزع الهيمنة عن العنصرية وان آل عمران هؤلاء الذين ينسبون إليهم مقولة شعب الله المختار ما هم إلا حالات بشرية أراد الله أن يرفع عنهم معاناتهم من الحياة وأن يحقق الرحمة التي وصف بها الله نفسه «الرحمن الرحيم». ولم يكن غاية ما فعل الله معهم أن يجعل من ذريتهم شعباً يعلو على الناس طغياناً وكفراً:

﴿الٓمٓ﴾ (١).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ (٢).

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ (٣).

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ (٤). آل عمران

في صدر وافتتاح السورة تأتي آية الكرسي «الحي القيوم» وتوضح الآيات بعدها ان سورة «آل عمران» هي الحق والفرقان بين ما دسه اليهود في التوراة وما حرفه النصارى من الانجيل وما أنزله الله في أصول تلك الكتب السماوية وما يتنافر في هذا المضمار مع مضمون ومفهوم القرآن اذ توضح السورة أن الدوافع المادية التي يستنبطها العقل الابليسي والشيطاني للناس هي التي تزيف الاعتقادات وتنحرف بها نحو العنصريات فتدس في الكتب السماوية ما ليس فيها والله بريء من ذلك ولسوف يؤتي الله ملكه للاسلام كدين روحي :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ (١٠)

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (١١).

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ (١٢).

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦ / آل عمران).

فليسأل المسلمون الآن أنفسهم وقد تبين لهم أنهم هالكون لا محالة وضعفهم وذلهم بين الأمم على الطريق الروحاني ومحاربة المادية أم أنهم كفروا بالله والروح؟ ان

القرآن كما هو بين أيدينا ينبذ المادية كعقيدة ثم يقول في موضع آخر للاشباع المادي

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِ... ﴾ (الآية).

حتى آيات الجنة ونصيبها من حيث تلك الزينة والشهوات كلها حسية فماذا يريد من ذلك؟

ان القرآن يحارب المادية من حيث هي مصدر للطغيان والطبقية ولا يحاربها كحاجة بيولوجية لأنها ضرورة وبعض ذلك أنه يريد أن تكون المادية على الكافة بين الناس وذلك لأنها لو وقعت بين يدي طبقة معينة لخلقت الأحقاد والطغيان والكفر بالله وهذا ما لا يريده القرآن.

الاسلام اذن بهذا المعنى هو الدين العالمي الذي بشّر به القرآن ولذلك يدعو القرآن أهل الكتاب الى الاسلام وغيرهم ليكون من هذا المنهج عقيدة عالمية:

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَٰبَ وَالْأُمِّيِّنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِئَايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ (٢٢).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٣).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ (٢٤). آل عمران

الافتراء على الله وتحريف النصوص والعقائد العنصرية تخدم شيطان الهوى المادي للنفوس المريضة ولا يقف أهل الكتاب عند حدّ بل انهم يكتبون الكتاب السماوي بأيديهم للناس ثم يقولون لهم هذا من عند الله ليشتروا به ما يشبع الغرائز الحيوانية ولذلك جاءت سورة «آل عمران» بأمرين جليلين على تلك المقولات الأول هو انزال الفرقان التي تضمن تلك السورة وأيضاً سورة «الفرقان» والثاني ان تنزيل الكتاب السماوي متشابهاً يجري مجرى القصص والموعظة. لكن القرآن ليتدارك ما أفسده أهل الكتاب نزل على نهج المحكم والمتشابه ليكون من المحكم سيطرة على المتشابه الذي يزمع به المفسدون وان القرآن جاء بالمحكم في رموز فواتح السور وجملة من الآيات في صدر كل سورة ليكون من ذلك المحكم ضبط الموضوع الذي يقدمه القرآن بعد ذلك في متشابه القصص والحوار والحكم والأقوال المأثورة والأمثال وغير ذلك مما يزيد ويشرح ويفصل. لكن المحكم يبقى لغرض واحد هو ما يجب على الدارس أن يتبناه ـ«اقرأ كتابنا تفسير الكتب القرآنية» وكتابنا «أسرار الرموز»:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٧) آل عمران

يجمع القرآن عدة من السورة القرآنية في كتاب واحد ويرمز لهذا الكتاب برمز مثل «الم» وغيره ليكون من هذا الكتاب القرآني محكماً لموضوع واحد يناقشه ويوضحه في تلك السور حتى بلغت بعض سور القرآن أن تكون صورة طبق الأصل عن الأخرى وما اختلف فيها إلا المتشابه به مثل ما بين يدينا من سورة «البقرة» وسورة «آل عمران» لأنها موضوع واحد يعرضه القرآن بجوانبه المختلفة ولذلك نرى

المقولات تتكرر لكن التحليل يختلف. لذلك أورد القرآن في «البقرة» تاريخ بني اسرائيل وما كان منهم مع الله وموسى «ع» والآن يورد تاريخ «آل عمران» ورحمة الله لهم وان قصة زكريا وامرأة عمران وانجابها لمريم. وقد كانت تريد ذكراً ثم انجاب مريم لعيسى دون نكاح ظاهري وهو ما يقول القرآن فيه ان هذا الأمر انما حدث برحمة الله وروحه حيث كانت مريم تعاني من عقدة الذكورة وهي لهذا الأمر كانت في معاناة نفسية كبيرة أراد الله أن يرفعها عنها وأن الله لم يكن يريد من ذلك أن يجعل من عيسى إلهاً أو ابناً يعبد من دون الله في الأرض.

لكن القرآن وهو يجمع بين النصارى واليهود في سورة «آل عمران» وما يتقولون به على الله افتراء يريد أن يقول لنا ان المقولات جميعها سواء كانت منحرفات عقلية أو عقائدية أو أسطورية أو عرقية فإنها جميعاً تشترك في غاية واحدة يطفح بها الكيل ويتبين في سلوك أهل من عشقهم جميعاً للمادية كمنهج للحياة وكأسلوب طغياني يريد أن يجعل من تلك المقولات ديانة سماوية. وليس الأمر كذلك وها هو القرآن يقدم في سورة «آل عمران» مقولة أخرى في غاية الأهمية نتبينها من فقه اللغة الذي جاء في كلمة «الاصطفاء» وان اليهود والنصارى ادّعوا أن الله اصطفى الشعب اليهودي والنصراني ليكون منهما الوصاية على العالم وهم ورثة الأنبياء والرسل وما علموا أن الله يصطفي من مخلوقاته سواء كانت تلك المخلوقات ملائكة مثلما حدث مع جبريل «ع» ويصطفي من الناس مثلما اصطفى آدم وآل ابراهيم وآل عمران لكن هذا الاصطفاء لا يتم بوجهة نظر العنصريين وانما يتم لأغراض شتى يوردها القرآن في فقه بديع خلال سورة «آل عمران». ويبين أن الروحانية هي قصدية الله ولذلك كان نوح وآل ابراهيم وآل عمران أقرب الناس الى الله ولذلك استجاب لزكريا فأنجب يحيى ولمريم فأنجبت عيسى وهو عند الله في خلقه كآدم خلقه من تراب وان قدرة الله في عملية الخلق لا تعجزه الأسباب، ولذلك تورد القصص كيفية ولادة يحيى لزكريا وعيسى لمريم وان المحاجة التي جاء وفد نجران بها ليعلنوا على الناس أن عيسى ابن الله محاجة باطلة يراد بها اعلاء شأن المسيحية واتباعها وهو منهج العنصرية والتعالي والحقيقة خلاف ذلك:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٥٩).

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (٦٠).

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (٦١).

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٦٢).

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٦٣).

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٦٤).

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٥).

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦٦).

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٦٧).

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٨). آل عمران

هذه المشكلة العالمية تؤرق القرآن والعنصرية لا تترك شيئاً حتى تضع فيه سمومها والقصص عن عزير وعيسى وخوارق المعجزات والأنبياء يملأ التوراة والانجيل حتى ابراهيم نفسه ادعوا انه كان على ملتهم المادية والحقيقة خلاف ذلك اذ انه كان على المنهج الروحي المسلم وان محمداً (صلعم) هو الوحيد الذي يصح أن يرث ابراهيم حتى قال «أنا دعوة ابراهيم».

لا يصح أن نغفل عن كيفية تقديم القضايا في القرآن خاصة في مسألة أهل الكتاب لأنها قضية العالمية لذلك نرى في البقرة تحليلاً وافياً عن عقلية بني اسرائيل وانهم كانوا طوراً منحطاً للعقل لا يفهم ولا يدرك إلا المحسوسات وكان فيهم موسى «ع» ولم تنجح محاولته معهم لاتهاج المنهج الروحي وابراهيم من خاض نفس التجربة أيضاً والقرآن يشرح في البقرة كيف تسلسلت الأحداث من ابراهيم حتى موسى ليوضح لنا ان نشأة اليهودية كديانة سماوية لا تتعارض مع الدين انما تجيء المشكلة عندما يزيف الماديون الاعتقادات عند الناس فيدرسون في الكتاب ما ليس فيه وهذا ما تحاول سورة «البقرة» وسورة «آل عمران» أن تقوله لنا ومشكلة آل عمران كمشكلة آل ابراهيم والقصص المحرف والخرافة الأسطورية هي التي أفسدت أهل الكتاب دياناتهم والقرآن يكشف للمسلمين عن ذلك ليقول ان الطريق الى هدم الأمة يبدأ من هذا الطريق الذي يتربص بالناس فيه العنصرية والمادية.

كم من دين نشأ وهو في أرض السمو الروحي وكم من أمة قامت في التاريخ وهي تعلن عن المثاليات والأخلاق ثم لا يلبث الزمن أن يشوّه الماديون كل هذا الوجه المنير للتجربة وسلاحهم اللعين العقيدة العنصرية وتقسيم الأجناس واختلاق الملة ونحلة الاعتقاد الزائف:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩).

﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُواْ الْمَلَٰئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٨٠).

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٨٣).

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٨٤). آل عمران

هذا الجانب العالمي من الدعوة هو القصد من نزول آيات سورتي «البقرة» و«آل عمران». والقرآن يوضح لنا ان الاسلام هو الخلوص من المادية بشتى صورها سواء كانت تلك المادية فكرية أو عقائدية أو سلوكية والمسلم الحق هو الذي لا تأخذه العنصرية والتعصب مأخذ اليهود والنصارى والمقولات التي دسوها في الكتاب السماوي من التوراة والانجيل وقصص الخرافات والأساطير.

كيف يدرس أهل الكتاب الكتب السماوية التي تأمر بالإخاء والسلام ثم يجعلون من أنفسهم أوصياء وأرباباً للناس؟

﴿ أُوْلَٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَٰئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٧). آل عمران

يقولون للناس انهم حفدة الأنبياء وان الله أكرمهم بكثرة الأنبياء فيهم ولم يدركوا ان كثرة الأنبياء فيهم انما هو دليل قاطع على شرورهم وفسادهم ولا تتدخل السماء في شئون الناس إلا عندما يحدث الفساد في الأرض والفطرة السلبية لا تحتاج لرسول والسنة القائمة لا تحتاج لنبي والله قيوم على شئون الناس في كل لحظة وحيويته لا تترك مخلوقاً لشأنه وان مبدأ الرعاية والرحمة هو الذي يحكم علاقة الخالق بالمخلوق ولو كانت مقولة اليهود أن الله لا يعلم الجزئيات صحيحة لما استجاب لزكريا ولما ولدت

مريم عيسى ولما حدثت تلك الخوارق المعجزة لأنها لا تستقيم مع ما تعارف عليه الناس وهذا برهان أن الله مع الناس وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا تحدث همسة في الليل ولا في النهار إلا ويسمعها. والعقيدة الاسلامية في هذا الشأن انما تريد أن تقول للناس وللعالم أن لله وجوداً سرمدياً لا يعتريه كلل ولا ملل ولا نوم ولا غفلة ولا ازورار عن شيء ولا ازورار من شيء وهو وحده الذي يحيي وهو وحده الذي يميت وهو صانع الأمم على الأخلاق الرحيمة وهو بعينه مهلك الأمم بما اقترفت من الفساد في الأرض.

في ذلك الايمان لو كانت الأمة تؤمن بالله على هذا النحو لكان للقيم والأخلاق فيها شأن آخر ولكان ضمير الأمة هو الضمير الحي في كل شيء. لكن الواقع بكل أسف بخلاف ذلك تماماً وايمانها بالله ايماناً مزيفاً وانحدار شأن الأمة خير دليل على هذا الأمر اذ لو كانت الأمة مع الله لكانت الحال بغير ما نراه.

يقول القرآن في شأن المعجزات ان الوحي السماوي بين يدي الناس فقط عندما يسيرون على المنهج الروحي وعندئذ يوحي الله للعبد عن طريق المثل الخالص ما يحلّ به المشكلة التي يعاني منها ومثل ذلك ما فعله زكريا فأنجب يحيى ومريم فأنجبت عيسى وعيسى فأحيا الطير وصنع المعجزات.

ولا نقول كيف حدث ذلك «اقرأ كتابنا المعجزة والعقل». لأن الله يعمل في النفس من خلال الروح العاقل، ولو علم الانسان هذا الأمر لكان له مع ما يشغل النفس من الشهوات والمادية موقف آخر. ولكن الخلوص صعب المنال وقيامة المسيح واحيائه للموتى انما هما خلوص من الأحساد التي تطغى على قدرات الانسان الروحية والأخلاق الفاضلة التي نادى بها المسيح لم تتحقق إلا بعد صلبه بالجسد وهو حي بين الناس من خلال فاضل المسيحية وطاهرها وانما يكون الوزر على الذين يفسدون ما أصلح الله به شأن الناس.

والقرآن عندما يطلق على كل مصلح من الأنبياء والرسل وتابعيهم انهم مسلمون انما يعني انهم كانوا من الناحية الاجتماعية على المنهج الروحي وانهم قد رضوا عن الله

فرضي عنهم. وهذا الأمر انما يقدمه القرآن ليوضح لنا أن المشكلات التي تعترض الناس هي وإن كانت مشكلات نفسية أو بيولوجية فانها ستجد الحل عند الله يوحي به لصاحب المشكلة فيكون من ذلك رحمة الناس ومسعاتهم:

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ (٥٢).

بعد تقديم ما أوحى الله إليه من خلقه للطير وابراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وما كانوا يدخرون في بيوتهم وتصديقه بما جاء في التوراة

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥٢).

فالحواريون الذين انتشرت المسيحية على يديهم كانوا على المنهج الروحي اجتماعياً وكانوا يؤمنون بالأمة العالمية التي بشر بقدومها ابراهيم وحاول موسى اقامتها في بني اسرائيل وها هو القرآن يوضح أن المسلمين هم أصحاب تلك الأمة وما عليهم إلا اقامة الروحية التي تنسى في الانسان طاقاته الخلاقة المبدعة مثلما بين أيدينا من معجزات عيسى وغيره من الرسل.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٩).

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠).

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧١). آل عمران

حرب فكرية ضروس قامت بين المادية يمثلها فساد اليهودية والنصرانية وبين الأفكار القرآنية الوافدة التي تنادي بعالمية الدعوة والدين والمنهج لهذه الدعوة والدين

انما هو المنهج الروحي الذي نزل الكتاب السماوي في التوراة والانجيل من أجل قيامه وما يخوض فيه أهل الكتاب من العنصرية والمادية ليس من تلك الدعوة في شيء وتقديم القرآن قضية من سبق الرسل أمثال ابراهيم والأسباط وموسى وعيسى والنبيين جميعاً انما هو اعلان من عالمية الاسلام كدين نهائي للناس ومنهجه المقترح هو المنهج الروحي ﴿إنَّ الدِينَ عِنْدَهُ الإسْلَامُ...﴾ (الآية).

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (٨١).

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (٨٢).

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣).

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤).

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (٨٥). آل عمران

ليس ما عليه الأمة الآن هو الاسلام لأنه لو كان ذلك هو اسلام ما ذكرتهم الآية لكان واقع الأمة غير ما هو الآن وانما جرى على الأمة ما جرى على سابقتيها لأن الآفات التي كانت سبباً في انهيار اليهودية والمسيحية هي أيضاً التي كانت سبباً في انهيار أمة الاسلام والداء لا يوجد في المنهج انما يوجد الداء في النفوس المريضة لأهل الأمة ولو قولنا الحق لعددنا الأمة من أهل الكتاب أيضاً.

أنظر أيها المتدبر كم معبداً أعني مسجداً بنيت وكم داعياً قام يدعو الناس الى الله وكم جامعة اسلامية تعمل في هذا الحقل وكم كتاباً نشر في المجال وتفسيراً وضع في القرآن لو كان كل ذلك على الحق لأصلح من شأن الأمة لأن القرآن يقول لنا ان واحداً فقط على الحق يستطيع أن يبني أمة وأن ابراهيم كان أمة وحده وأن محمد (صلعم) والقرآن وحدهما أقاما مجتمعاً وأمة كانت على المنهج فليتدبر الناس آفاتهم وعقائدهم الفاسدة كما جماعة اسلامية باسم المنهج قامت في التاريخ الاسلامي واقرأ الملل والنحل لتعرف أن المذاهب وكل ما جاء في تمزيق الأمة كان لسبب واحد هو غياب المنهج الرباني والاسلامي الحق.

هذه المأساة تقع للأمم عند غياب العقل وفي غيابه تصدر الفرمانات من الحاكم بتولية مشايخ الصوفية والدسوقية والشاذلية والخرافية أمور الدين ومقادير العقائد ومصير الناس:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُولَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ (١٠). آل عمران

في التعريض بأهل الكتاب في سورة «آل عمران» تأتي الآيات التي تقول للناس ان ابراهيم «ع» قد بنى البيت الحرام ليكون أمناً للناس وشاهداً على ما يريده الله وينهاه وأمر الناس بالحج الى تلك البيئة الآمنة ليكون من ذلك شهادة وعلامة وأن الله لا يقبل المناهج التي تدعو الى الصراع بين الناس واختفاء السلام بينهم ولذلك يدعو القرآن المسلمين الذين آمنوا بعالمية الدعوة وأن يكون منهم في هذا الأمر أمة عالمية:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (٩٦).

﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ

﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (٩٧).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨).

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤).

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥). آل عمران

هذه هي الدعوة العالمية فكم حاجاً من المسلمين ذهب الى البيئة الآمنة وعند البيت الحرام؟ وكم من الشعائر أداها الحجيج تشير الى المساواة والإخاء الانساني والسلام ورغم ذلك كله تأخذ جميع بلدان العالم الاسلامي بالنظام الغربي وما يجري فيه من صراع وحروب وفتن ورغم التاريخ والحرب العالمية الأولى والثانية لا يعتبر المسلمون وكأنهم لا عقل لديهم ولا انسانية عندهم والمادية المستوردة من الغرب تطحن كل شيء وتدور الناس بلا رحمة ورغم ذلك يقام كل يوم مسجد يذكر فيه اسم الشيطان والناس في غيبوبة عما يفعلون.

يقول القرآن لمسجد واحد أسس على التقوى خير من تلك الملايين من المساجد في الأرض ولمؤمن واحد خير من الملايين التي تدّعي الاسلام بين العالم والقرآن لا يكشف عن المشكلة إلا ليقول لنا احذروا فإن المصير الى الله وهو بعد ذلك شديد العقاب والآخرة اذا لم تصنع في الدنيا فإنها تضيع وتبقى الحسرات :

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ (١٠٩). آل عمران

يقول القرآن في شأن محمد (صلعم) والذين آمنوا معه انهم باتخاذهم هذا المنهج

الروحي صاروا خير أمة أخرجت للناس ولو آمن أهل الكتاب بهذا المنهج لكان خيراً لهم ولكنهم ماديون لا يؤمنون بالمساواة ولا بالسلام ودينهم الصراع وعقيدتهم الحرب واليهود خير شاهد على ذلك أقاموا خمسة حروب في ثلاثين سنة وحياتهم كلها حرب متصلة اذا لم توجد بينهم وبين الناس كانت بينهم في الطوائف والطبقات وعبدة الطاغوت وكلما حطموا ركابهم أشعلوا نار الحرب ويقول فيلسوفهم المنكود «أنا أحارب اذن ، فأنا موجود» أي لا وجود للمادي إلا في ظل الحروب والدمار والفتن واحراق الناس لهم واضطهادهم في كل بلد شاهد حي على فساد عقيدتهم وانحراف دينهم ولو كانوا أهل السماء كما نزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى لآمنوا بمحمد (صلعم) وما يدعوهم إليه :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴾ (١١٠).

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ (١١٢). آل عمران

المادية المعاصرة صورة مكبرة لمادية أهل الكتاب والحروب التي تنشأ من الصراعات الدولية نتيجة حتمية لفشل المنهج المادي والقرآن يحذر الناس من ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (١١٦). آل عمران

في صدر سورة «آل عمران» بين القرآن أن العنصرية تبني مقولتها على الأساطير وكان ذلك بعد بدء واحساس محمد (صلعم) أن الصدام قادم لا محالة مع أهل

الكتاب بعد أن وقع مع قريش لنفس السبب وفي آخر سورة «آل عمران» تأتي غزوة أحد وما حدث للمسلمين فيها من الهزيمة كان بسبب التطلع الى المادة والغنائم :

﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١٤٠).

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١٤١) آل عمران

لذلك يقدم القرآن في هذا الموضع مسألة قتال الملائكة مع الذين آمنوا فيقول لهم عندما كنتم تقاتلون مع المنهج الروحي ولأجله فإن الله أيدكم بملائكته ونصركم وعندما كنتم تحاربون من أجل المادة والشيطان خذلكم. وهذا دليل قطعي على صدق المنهج الروحي الذي يقدمه القرآن لكم ولتعلموا ان الطاقات الروحية الخلاقة تعمل في نفس الانسان متى كانت عقيدته خالصة لله والانسانية والقيم والأخلاق الروحية ترفع من معنويات الانسان والشر مع ما له من جند مجندة لن ينتصر في النهاية أبداً انما يريد الله من الهزيمة أن يمحص الاعتقاد لدى المؤمنينَ وليحل اليقين لديهم محل الشك وليكون من ذلك آية وبرهان.

يشترط الاسلام الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهذه أمور كلها روحية لا تتحقق إلا من خلال الانسان الروحي ولذلك يقدم القرآن النفوس الملهمة التي تستطيع التلقي ورؤية الملائكة حتى ليقول لنا انه ما ان يؤمن الانسان بهذه المعتقدات الروحية حتى يدخل الى عالم السماء فيرى ما لم يستطع من قبل أن يراه ويسمع ما لم يكن يسمعه ويشاهد بعين بصيرته ملكوت الله وابراهيم وزوجته خير مثال على هذا الأمر اذ يقول القرآن ان الملائكة المرسلين الى قوم لوط لعقابهم مروا بابراهيم فسلم عليهم وقام من فوره بذبح عجل سمين إكراماً لهم حتى اعتقد انهم بشر ولكن عندما قدم الطعام لم يجد أيديهم تمتد الى هذا الطعام فخاف منهم وخرجت زوجته اعتقاداً منها ان ابراهيم قد جن وصار مخبولاً وان القرآن يقول لنا ان

مثل تلك المشاهدات الروحية هي حادثة نفسية محضة لا يمكن أن يراها إلا من تلبّس بها تلبساً فهو وحده الذي يرى هذا العالم ولذلك كان ابراهيم يرى الملائكة ولكن زوجته لا تراهم والقرآن يقص علينا هذا الأمر لنعلم أن أمور الوحي والرسالة السماوية لا تنزل من فراغ انما هناك عالم للمثل تتنزل منه القيم الروحية وأخلاق سلام التي يدعو إليها الأنبياء والرسل وليس الأمر خرافات أو أساطير وانما هو واقع صادق. والدليل المادي على ذلك هو تحقق كل ما نزل من السماء من آيات الوعد والوعيد واللقاء الصادق مع الله وان النبوة والرسالة لا تأتي من فراغ انما يكذب بتلك الأمور الذين انغمسوا في الماديات فران على قلوبهم ما كانوا يفعلون.

الماديون لا يعرفون المصادر الحقة للقوة لذلك قال اليهود ان الله فقير وهم الأغنياء ليكون من تلك المقولة القوة الاقتصادية المسيطرة على الناس :

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (١٨١). آل عمران . .

هذه المسألة توضح لنا الفكر المادي كله اذ تطغى سلطة المال في المجتمعات المادية على سلطة الله والأخلاق فيكون من الطبقة الغنية أرباب للناس وهذا ما حدث في اليهودية والنصرانية عندما شادهما المنهج المادي وأصبح المليونير الرب الحقيقي لتلك المجتمعات والقرآن يقدم قصة قارون وسطوة المال والمصير الذي صار إليه وان الله خسف به وبداره الأرض ليعرف من ذلك الماديون ان الله لهم بالمرصاد وان الاسلام كدين عالمي له منهج اقتصادي يخالف المادية التي نراها متجسمة في الغرب بشكل فاضح حتى نرى قوة المال تتحكم في مقادير دول عظمى تتحكم فيها الفئة الثرية بمقدرات الأمة. وهذا ما يكشف لنا لماذا لم يهتم القرآن بتلك المسألة ويطرحها المرة تلو المرة ليقول للمسلمين ان هذا الطريق الذي سارت فيه الأمم من قبل طريق مسدود في نهايته الخراب والدمار والله لأهله بالمرصاد.

تقع غزوة بدر ومن بعدها غزوة أحد وهي حرب بين المادية القديمة والروحية

الناشئة على يدي محمد (صلعم) وصحبه ومن آمن بها ولكن القرآن وهو يعلم ان الفكر هو الذي يقيم الأمة دأب في سورة «البقرة» على تحليل الأفكار اليهودية التي تنبني عليها الديانة اليهودية الآفلة بالزوال ثم قدم الأفكار المسيحية مع مشكلة أهل الكتاب ليبين أن المادية تتخفى وراء هذا الفكر وتلك الديانات وربما لا تتضح صورتها في الفكر لدى قريش وما حولها لكن اليهود والنصارى كأهل كتب سماوية يتمتعون بما يشيعون في الناس أنهم أهل فكر وأهل علم ويبنون ماديتهم على ما رأيناه من جملة العقائد الزائفة والأساطير والخرافات المدسوسة ولذلك كان لهم خطرهم اذ ان ما ينبني على الفكر أشد خطراً مما ينبني على الحس وهذا ما تنبه له القرآن ونزلت فيه تلكما السورتان الجليلتان فكان من ذلك ما بين أيدينا من الفكر القرآني الروحي العظيم.

الفصل الثالث

المقولات في سورة «النساء»

في سورة «البقرة» بعد كل تحليل ونقد نزلت جملة من الشرائع ثم رأينا ذلك الأمر في سورة «آل عمران» أيضاً ثم نزلت سورة «النساء» لتقول ان الأصل في الانسان المساواة وليس للرجال على النساء إلا ما فضل الله به على الآخر من الفوارق الجنسية والقيامة على المعيشة وشرعت السورة جملة من الشرائع بمثابة تنظيم القوانين للأحوال الشخصية والهدف من ذلك ان القرآن عندما بدأ يبني الأمة فإنه قدم في «البقرة» و«آل عمران» جملة الفكر والعقائد ومبادئ الملة وعقائد الأمة وهي تختص كلها بشكل الأمة لكيان كبير للمجتمع ثم جاءت سورة «النساء» ليكون من جملة الشرائع فيها الشكل الذي تتبناه الأمة لتكوين الأسرة ولذلك نزلت علاقة المرأة بالرجل والمواريث وكل ما يمسّ حياة الأسرة المسلمة التي من خلال تلك القوانين سيكون لها شكل يغاير الأسرة اليهودية والنصرانية.

لكن اليهود يكيدون للمسلمين فيشككون في تلك الشرائع قائلين للذين آمنوا ان الله له شرع واحد هو ما جاءت به التوراة والغرض من ذلك تضليل المسلمين وصرفهم عن دينهم لذلك يرد القرآن في جملة من الآيات مبيّناً ان اليهود وأهل الكتاب لم يعملوا بشرع الله وانما عملوا من أجل الطغيان والجبت وكل ما ينافي الدين الخالص. ولو كان قولهم صحيحاً لتركوا التجربة الاسلامية التي تكشف عن قيمتها

ولكنهم يخشون انتشار الاسلام من حولهم فيكون وبالاً عليهم ولذلك عمدوا الى القول بان الشريعة اليهودية وما نزل في التوراة هو أذكى ما نزل في الاسلام :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴾ (٤٤).

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ (٤٥).

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٤٦).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٤٩).

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (٥٠).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ (٥١).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ (٥٢).

النساء

بعد مرحلة المحاجة التي مر بها المسلمون جاءت مرحلة المكيدة عندما أخذ المجتمع الاسلامي يأخذ شكل الأمة المستقلة بالشرع والدين الجديد ولذلك دخل من أهل الكتاب المنافقون في صفوف المسلمين وكان الغرض من ذلك الأمر كما ادّعوا هو التوفيق بين أهل الكتاب السماوي :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ

يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَنْ يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًا بَعِيدًا ﴾ (٦٠).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ (٦١).

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ (٦٢).

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ (٦٣). النساء

هكذا بعد الصدام في العقائد يجيء الصدام في الشرائع ودخول المنافقين من أهل الكتاب انما يراد به الفتنة والتضليل والقرآن يحاول أن يشرح لهم أن الشرائع تتفاضل كما تتفاضل العقائد والقيم والله يبين لهم أن ما نزل في اليهودية والنصرانية انما هو نصيب وجزء والمسلمون انما ينزل الله لهم من العقائد والشرائع نصيبهم أيضاً فلماذا العداء والمكيدة؟

يقول القرآن انهم أوتوا نصيباً من الكتاب السماوي كله ونزول القرآن في المسلمين شيء عادي عند الله، وقولة اليهود أنهم أمة سرمدية لا يصحّ في العقل ولا عند الله والتطور سنة تحكم كل شيء وبعد الأمة أمة وبعد الرسول رسول وانما يضع الله المنهج لتتسابق الأمم الى الخيرات والجميع مرجعه إلى الله:

﴿ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً... ﴾ (الآية).

يقول القرآن ان اليهود وأهل الكتاب لا طاقة لهم بشرع لأنهم عبيد للطاغوت والهوى فلو أمرهم الاسلام باتخاذ السبيل القويم الى الله ما فعلوا ولذلك انهارت أمتهم وذهب سلطانهم:

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ (٦٦). النساء

أي لو شرع الاسلام لهم من الشرع المتشدد مثلما قال موسى «ع» اقتلوا أنفسكم حتى يتوب الله عليكم أو كما أمرهم بالخروج من مصر كما حدث مع بني اسرائيل فإنهم لن يطيعوه أبداً وما جاء بالاسلام أخف بكثير من الشدة الموجودة في التوراة والقرآن يوضح أن عيسى «ع» قد أنزل ليضع عنهم العقوبات المتشددة التي كانت مناسبة لعصرها في بني اسرائيل وهذا الأمر لو أدركوه لعرفوا ان محمداً (صلعم) والشرع الاسلامي رحمة للعالمين ولكنهم لا يؤمنون إلا بالمادية والطغيان.

المسألة متصلة والمشكلة ما زالت قائمة وكلما نزلت جملة من الشرع جاءت مشكلة أهل الكتاب والأمية السابقة على الاسلام والمعركة كما تجري في ساحة القتال بالسيف والرمح فإنها تجري أيضاً في ساحة العقل بالنقد والتحليل وإظهار الأفضل وايضاح المنهج.

ان العقل مناط الوعي والقرآن يبين أن عقائد أهل الكتاب ما هي إلا ضلالات وكفر ينفث الشيطان فيها سمومه ولذلك يندرجون الى أعمال السحر وتغيير خلقة الأشياء مثل تحريم آذان الأنعام لتجلب لهم الثراء والوفرة. ولكن الحقيقة بخلاف ذلك وان العقاب رصيد لمن يعمل السوء والدين ليس أماني وانما هو التزام ومسئولية:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (١٢٣).

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (١٢٥). النساء

هذه هي القضية بين يدي الله وليس للمسلمين ولا لأهل الكتاب فضل إلا بالتقوى وكان القرآن يريد أن يقول لنا ان الأنانية تعمي بصيرة الأمم كما تعمي بصيرة الأفراد ويكون من عشقها كما نراه اليوم فساد القيم الروحية التي نزلت من السماء والعنصريات كلها تبدأ بخطوة الأنا والنحن وكل ذلك ليس من صحيح الدين في شيء:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (١٣٤).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا بَعِيدًا ﴾ (١٣٦). النساء

هذه مراحل تمر بها الدعوة والأمة الاسلامية وقد مرت بين أيدينا مرحلة العقائد والشرائع ثم جاءت مرحلة التحدي لله ورسوله فقد سألوا محمد (صلعم) عن المعجزات التي لديه لأنهم لا يعلمون الكتاب إلا أساطير ومعجزات وخوارق بحسب ما تمليه على عقولهم الخرافات والجبت والطاغوت فكان ردّ القرآن أنهم سألوا موسى «ع» أكبر من ذلك:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ (١٥٣).

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ (١٥٤).

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٥٥).

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴾ (١٥٦).

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا

صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ (١٥٧).

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١٥٨).

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (١٥٩).

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (١٦٠).

﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١٦١).

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١٦٢).

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ (١٦٣).

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (١٦٤).

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١٦٥).

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (١٦٦). النساء

هذا هو الرد القرآني على الحملة التي شنها اليهود ضد شخص محمد (صلعم) بعد أن فشلت الحملة ضد العقيدة والشرع لكن الله لديه السجل التاريخي لما فعلوه مع موسى والرسل من قبل حتى انهم يتباهون بقتل المسيح عيسى وهو على ما هو من روح القدس وان ذلك ليبين لنا الجبلة التي تتحكم فيهم وهي جبلة مادية بحتة اتخذت العجل إلهاً من دون الله لأن الماديات معبودهم وليس لديهم أدنى الفضل من الروحية ولذلك يعدد القرآن عصيانهم في «السبت» وغيره من المواقف التاريخية المشينة التي كانت نتيجتها غضب الله عليهم ومذلتهم وتشتتهم في الأرض.

لكن العبرة من ذلك كله يقدّمها القرآن ليقول لنا ان الأمة اذا غاب عنها العقل والرقي الروحي فلا بد من هذا الطريق والكفر بالله وآياته حتمية لمثل تلك العقليات ولن يؤمن المادي بأي رسول ولا بأي كتاب سماوي حتى لو كان القرآن نفسه وسيجد الداعية من يطعن عليه بالمقولات أمثال المعجزات. وهذا الأمر نراه في أمة الاسلام اليوم بينما لا يحتاج لبرهان فالدعاة بالآلاف والمساجد بالملايين والكتب التي تدعو الناس قد ملأت المكتبات والبيوت ولا فائدة من ذلك لأن الناس درجت الى المادية وجعلت من الترف المادي سياقاً للحياة والدينار والدرهم هم أرباب الناس ولا فائدة ترجى من الدعوة إلا أن يكون ذلك بالحديد والنار.

ينكر اليهود على محمد (صلعم) أن يكون الكتاب السماوي «القرآن» وحياً من الله ويريدون كتاباً ورقياً مكتوباً لكن القرآن يبين أن الوسيلة التي ينزل بها الرسل الى الناس جد مختلفة مثلما يشير القرآن الى ذلك الأمر فالله أوحى الى النبيين والرسل بطرق مختلفة فنوح أوحى إليه بالسفينة وصناعتها وابراهيم ببناء البيت الآمن وموسى بالكلام وداوود بالزبور وهو السيف القصير وكلها كما نرى وسائل مختلفة فلماذا ينكر اليهود أسلوب الوحي القرآني؟ انهم ماديون لا يدركون أعمال العقل الحر الذي يضع الأشياء في موضعها السليم وما ينفع لأمة أو قوم لا ينفع لآخرين وقد بات لله على الناس في أمة الاسلام الآن أن لا تنفع الدعوة الى الله إلا بالشدة والقوة وما لا يقومه القرآن يقومه السلطان وهذا الأمر لا يعني عمل مثل عمل الجماعات الاسلامية والملل

والنحل والطوائف انما يجب أن يأتي هذا المنهج الروحي من الدولة التي ينتظم فيها الكل تحت الراية ولا يكون عندئذ موضع لاختلاف إلا في الرأي السديد والحجة البالغة المادية منهج مطلوب في العلوم وضروري في الاقتصاد والسياسة لكنه عدو للأمم في الاجتماعيات والسلوك الانساني ولا بدّ أن نعرف أن القيم المادية صائرة حتى الى قيم روحية يؤكد ذلك فناء الأجسام وسريان قانون الموت على كل ما هو مادي لكن العالم الروحي لا يفنى ولا يموت بجوار الله سبحانه وتعالى.

ان عقائد التجسيم والأصنام والأوثان والتوتميات وغيرها من الديانات المادية هي في الحقيقة انعكاس ذهاني لما يهواه الناس من عشق القوة المادية ولذلك نرى الأصنام التي كان يصنعها الناس تأخذ أسماء مثل العزى واللات ومناة وغيرها مما كان يتمناه الناس من القوة المادية ولما انقرضت المرحلة الوثنية والسحرية في الديانات جاءت مع أهل الكتاب الديانات الاشراكية كمقولة أن عزير ابن الله والمسيح ابن الله لتخدم نفس الاتجاهات التي كانت للوثنيات من قبل:

١ ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (١٧١). النساء

هذه الاعتقادات في الله لا يكون من شأنها اتخاذ موقف واحد تجاه قضية الله لأن من كانت له آلهة متعددة فإنه يأتمر بامور تتعدّد أيضاً والله يريد التوحيد وانتهاج المنهج الروحي وحده وهذا ما يجعل القرآن لا يغفل عن قضية أهل الكتاب فيوردها عندما يحين نزول شرع روحي جديد يراد به قيام الأمة التي ستبني العالمية للناس. وهي بالضرورة تتطلب التوحيد ولا يقول قائل ما معنى تلك العقائد وما دام الأمر سيكون في النهاية إلى شرع موحد يستقي كيانه من مبدأ روحي يأمر به الله وهذه المسألة مردها

كلها إلى الماديين لأنهم هم الذين يخترعون الأفكار المنحرفة التي تخدم أغراضهم العنصرية والمحاجة والجدل في الله ليس من شأن المؤمن وانما هو من شأن الكافر المادي الذي يفتري المقولات والديانات ولا يكون بعد ذلك إلا الرد عليه واقامة الحجة والخوض في مشاكل فكرية كما هو بين أيدينا من مسألة أهل الكتاب.

ما دامت حياة الانسان لا يتم فيها السلوك إلا من فكرة وجب على الشرع أن يكون له جملة من الاعتقادات والمبادئ التجريدية التي تسكن العقل. وهذا ما يقلق القرآن فيزيد من الجدل الفكري والتحليل العقائدي ويتصدى للمقولات الواحدة تلو الأخرى فيقول للناس هذا هو الحق في مثل تلك الأفكار التي يطرحها أهل الكتاب والعنصريون.

تكاد لا تخلو سورة في القرآن من مشكلة أهل الكتاب والكافرين حتى ولو لم ترد لفظة «أهل الكتاب» يأتي القرآن ببديلها من «الكافرين». «الظالمين». «الفاسقين» كل بحسب سلوكهم وانحرافاتهم حتى ولو لم يكن السلوك منهم نسبة إليهم لأنهم هم الذين يقلمون الفكرة لمثل هذه المسالك الشائنة.

قضية البحث عن الله ليست قضية أهل الكتاب في القرآن لأن الوجود الالهي يمكن لأي فرد أن يتعرّف عليه نظر في الفطرة وتوازن البيئة والطبيعة وكل شيء مستقر بين يدي الانسان يشير الى ذلك وقصة «حي بن يقظان» لابن طفيل تبين لنا هذا الأمر لكن المشكلة تكمن أساساً في النفوس المريضة بداء عبادة المادي فيها تختلق القضايا اختلاقاً حتى ليقول الكافرون انهم يعرفون الله وما يعبدون الأصنام إلا لتقربهم منه وهذه هي المقولات التي يتعرض القرآن لها فيوضح أنها تنبع من عشق المادة ويختلق الذهن المريض تلك الخرافات والاعتقادات والشرك.

الفصل الرابع
المقولات في سورة «المائدة»

عرفنا ان سورة «النساء» هي في الواقع امتداد لما قبلها وانما نزلت تلك السورة لبيان المبدأ الذي سيجري عليه شرع الأمة وان هذا المبدأ هو المساواة أمام الله سواء كان الانسان رجلاً أم امرأة وانما تجري المسئوليات بالوظائف الأسرية والاجتماعية وان الرجل في وضع مسئولية أكبر من المرأة ولهذا جاء الشرع في الميراث وغيره في صالح الرجال ولكن ذلك لا ينفي المبدأ الأول وهو المساواة حتى ما حدث التطور والتقدم الاجتماعي.

أما سورة «المائدة» فقد نزلت من أجل مهمة سياسية خطيرة هي مسئولية الكوادر من الصحابة والتابعين الذين سيأخذون مكانتهم كما أخذ الحواريون مكانتهم في المسيحية وان هذا الأمر أصبح ضرورة في تلك المرحلة التي تجتاح المجتمع الجديد من دخول أهل الكتاب وغيرهم حتى ظهرت فئة المنافقين وان الالتزام بمبادئ الدعوة أصبح يشكل مطلباً ملحاً لأن الخروج على مبادئ الدعوة بدأ يظهر على يدي المنافقين وغيرهم ممن دخل في الدعوة مكيدة فيها والقرآن لو درسنا مسألة أنه نزل منجماً مسايراً للأحداث فإننا سنتبين تلك المراحل السياسية التي نتحدث عنها لذلك سنجد تلك السورة تركز على المسيحية وما حدث بين عيسى وأصحابه حتى كانت المسيحية ثمرة لجهود الحواريين في الدعوة قبل أن تكون ثمرة لجهود صاحب الدعوة نفسه.

جاءت السورة لتقول للاسلاميين إن أردتم أن تثمر جهودكم في الدعوة حتى تكونوا أمة فعليكم بالميثاق واحترامه ونصرة الله ورسوله والالتزام بالخط الذي يرسمه الله لتلك الأمة لأن اليهود عصوا موسى «ع» فكان الله لهم بالمرصاد حتى شتتهم في الأرض وهم فعلوا نفس الشيء مع عيسى وما انتشرت دعوة موسى «ع» إلا من خلال الحواريين ونشاطهم للدعوة وان الصحابة والتابعين عليهم في الدعوة ما كان من مسئولية الحواريين أيضاً وأن محمداً (صلعم) لا يمكن أن تثمر وجوده وحده وأن المرحلة تتطلب جهداً مشتركاً يكون غايته وجه الله ورسوله.

لكن القرآن بيّن لنا المنهج الذي يجب أن تربى عليه طبقة الكوادر من الصحابة والتابعين فيقول ان المائدة ليست من ماديات الأرض وانما هي من عالم الروح السماوي وستكون تلك المائدة ممدودة أمامهم ليغترفوا منها ما يريدون وما يحتاجون من المعارف والادراكات.

أحس القرآن أن بدء الدعوة الى الأمة العالمية أصبح وشيكاً ولذلك بدأ يخفف من العزلة التي كانت بين المسلمين وأهل الكتاب فأباح التزوج منهم وأحلّ طعامهم وغير ذلك مما يقرب يوم الوحدة في الله سبحانه وتعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٥). المائدة

مرحلة تاريخية كبيرة وخطوة يريد القرآن تأمينها فيدعو المسلمين الى الالتزام بالميثاق والطاعة:

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (٧). المائدة

يسرد القرآن كيف أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثه اثني عشر نقيباً في كل سبط من الأسباط واحداً ومثل ذلك فعله الله مع المسيحيين وبين لهم أن الالتزام بالميثاق والطاعة ضرورة لنجاح الدعوة ولكن اليهود والنصارى لم يلتزموا بذلك وأخرجوا للناس ميثاقاً غير ميثاق الله وجعلوا من أنفسهم أرباباً من دون الله وكان منهم ما يسمى اليوم «مراكز القوى» الذين لا يلتزمون إلا لمصلحتهم الشخصية ويفسدون في مسار الدعوات لأغراضهم الدنيئة وهذا ما كان سبباً في ضياع الأمة اليهودية والأمة المسيحية والقرآن يقول للمسلمين ان ميثاق الله والأخذ بما يدعو إليه الله يجب أن يلتزم به المسلمون بكل قوة وأن يعمل النقباء فيهم ليس من أجل الشيطان كما حدث وانما يجب أن يكون هؤلاء النقباء قدوة لأنهم مبعوثون من عند الله ومسئوليتهم كمسئولية الرسول أيضاً :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (١٢).

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣).

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (١٤).

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٥).

﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١٦).

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (١٨).

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩). المائدة

هذه هي قضية أهل الكتاب والعنصرية والفساد بالأرض بكل المقولات الكاذبة على الله ولو تبينّا لماذا لم يلتزم اليهود ولا النصارى بالميثاق لعرفنا أن الأهواء المادية والأغراض الشيطانية هي التي دفعتهم دفعاً إلى هذا الطريق وان القرآن يقول لهم ان الميثاق اليهودي والميثاق المسيحي لا يتعارضان مع ما نزل به الكتاب السماوي من التوراة والانجيل والقرآن فلماذا تعادون محمداً (صلعم) والقرآن وما يدعوان إليه من السلام والعالمية؟ لو كان الأمر مختلفاً لكان معكم حجة ولكن الله هو المصدر الذي جاءت منه تلك الدعوات السماوية وما القرآن إلا طوراً من أطوار الكتاب السماوي الذي بين أيديهم لكن القوم وقد أخفقوا بمقولة أبناء الله وأحبائه وما يخفى وراء تلك المقولة من استغلال الناس باسم الديانة انما يريدون الحياة الدنيا وزينتها ولا يريدون الله ولذلك

عذبهم الله بما قالوا ولو كانوا على حق في هذا الشأن لما حدث لهم ما حدث من تدمير الأمة اليهودية والأمة المسيحية حتى كانت طبقة رجال الدين تصدر للناس صكوك الغفران بأيديهم ويقولون للناس هذه هي مغفرة الله فمن يشتري؟ وتكون النتيجة كما رأينا ضياع قضية الله وميثاقه الذي واثقهم عليه والربط الذي قدمه القرآن في هذا الموضع بين المقولة والنقابة انما يريد أن يشير الى أن طبقة النقباء وهم الطبقة المثقفة دينياً هي المسئولة عن تلك المقولات وهي التي تحرف في التوراة وهي التي تفسد النصوص في الأناجيل والكهانة اليوم في كل دين هي وريث خلقي لهذه الطبقة التاريخية ولهذا الأمر يفصل القرآن بين طبقة رجال الدين وبين طبقة الفقهاء فيقول ان الفقهاء لا يجب أن يتولوا اموراً على الناس ليكون من ذلك تحصين لهم أمام الماديات واغراءاتها فهم يعينون في المناصب التنفيذية وانما يقتصر عملهم على الدراسات والفتاوى وكل الأعمال العقلية التي تتطلب الأمور الفقهية ثم يأتي دور النقباء ليكون منهم المنفذ لأعمال الفقهاء النظرية وان هذا الفصل بين النقيب والفقيه يلغي ما تعارفنا عليه من رجال الدين والكهانة التي أفسدت أمر الديانات كلها حتى الاسلام أيضاً.

ان العدو الأول للأديان جميعاً هو رجل الدين لأنه هو الذي يستطيع أن يزيف الاعتقادات والعدو الأول للعالمية هي الأمم الدينية لأنها هي التي تدخل الى البشرية شتى ألوان العنصريات والتعصب ومقولات الشيطان الكاذبة وفي كل بلد حل اليهود به وجدناهم صورة شائهة للبشر المتدين وهذا الأمر لا يلغي الأديان انما يدعو القرآن الى الدين الخالص والدليل على هذا الأمر أنه يدعو الى السلام والعالمية من خلال الدين أيضاً ولذلك يهتم القرآن اهتماماً بالغاً بما يقوله أهل الأديان وتصدى للمقولات في كل موضع حتى انه أنزل سورة «الأنبياء» خصيصاً ليقول لأهل الأديان ان الأنبياء نزلوا بوظيفة محددة هي الدعوة الى النهج الروحي الذي يتبناه الخالق سبحانه وتعالى ولا يصح للناس أن يتخذوا هؤلاء الأنبياء أرباباً من دون الله فيكون من أمة كل نبي عنصرية تعادي الله والأخلاق وان ذلك ليس من رسالة السماء في شيء.

ناقش القرآن مسألة رجل الدين والنقابة والدور الذي يجب أن تقوم به والضوابط التي يجب الوقوف عندها. ونراه بعد ذلك في نفس سورة «المائدة» يقدم الضوابط التي يؤخذ بها العامة من الناس وأن الشدة في شأنهم مطلوبة وان التاريخ يقول في هذا الشأن ان بني اسرائيل بعث فيهم موسى وأخرجهم من أرض العبودية مصر الى حيث رحاب الحرية ووعدهم الله بأن تكون أرض الغربة في أرض كنعان هي دار الحرية التي ستجعل منهم ملوك زمانهم وعندما حان الوقت لملاقاة الأعداء فروا هاربين خائفين من مواجهة الموت من أجل الله والحرية. وكان هذا الموقف المشين سبباً في تشتيتهم وغربتهم بما يعرف «بالتيه» مدة كتبها الله بأربعين سنة ولذلك لا يجب التهاون مع العامة بل يجب أخذهم بالشدة ثم أوردت السورة قصة ابني آدم والمنافسة بين المتقين والمفسدين وان المفسد لا يتورع حتى عن قتل أخيه مثلما حدث مع ابني آدم هذين. وان النفس طبيعتها أن تأمر بالسوء والفحشاء ولا ينفع في مثل تلك الطبيعة إلا الشدة والردع والأخذ بالقوة والسلطان القاهر للدولة ولا يصح التهاون مع العامة في أمور الشرع :

﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ (٢٤).

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ (٢٥).

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ (٢٦).

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٧).

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ (٣٠).

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (٣٢).

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣٣).

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣٨).

هذه هي مسألة تشديد العقوبات والشرع المتشدد يقول القرآن فيها ان العامة ما هم إلا حيوانات لا تنصلح أحوالها إلا بالسلطان الرادع والقهر والعقوبات الصارمة وقطع يد السارق وأخذ الخارجين على الشرع بالقوة أمر ضروري والتنكيل هو الأسلوب الذي يجب أن يؤخذ به في تلك الحالات وإلا حدث للأمة مثلما حدث لليهود والنصارى والتهاون يفتح على الأمة يأجوج ومأجوج ولا يكون بعد ذلك إلا ضياع الأمة.

لكننا نحسباً لمسألة قطع يد السارق لا بدّ أن تتم في تطبيق شرع الله وأن يكون الناس لديهم من الكفاية ما يقوم بحياتهم وإلا كان ذلك تطبيقاً تعسفياً مثلما يريد البعض أن يطبع هذا الحد في مجتمع المادية الرأسمالية القائم الذي يتم بالظلم في شتى مناحيه. وهذا التشديد كان له مناسبة تاريخية لا يصحّ تطبيقه في الوقت الحالي بأي صورة من الصور لأنه جاء كرد فعل لما حدث لليهود وغيرهم والحياة تطورت بالقيم والأخلاق إلا أن يراد من تطبيق مثل تلك العقوبات قيام الأمة العالمية على مبادئ المساواة التامة في الحاجات المادية للناس لأنها أصل الصراع كله.

في سورة «المائدة» يعطينا القرآن صورة للمادي ومعاملاته مع الناس ويبين لنا أن

المادي لا يحترم النصوص الدينية ولذلك لا مانع عنده من تحريف الكتب السماوية وليس لديه أمانة القول فإن طلب الناس منه النصيحة كان الهوى وراءها والفتن التي تحدث في الأمم لا بدّ أن تجد الماديين خلفها. ولذلك يحذر القرآن محمد (صلعم) من هؤلاء فيقول:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٤١).

﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (٤٢).

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٣).

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (٤٤). المائدة

اليهود لأيهم شرع يذهبون لتحكيم محمد (صلعم) وهم يعلمون أن لديهم التوراة فيها حكم الله ولكنهم يأملون في الفوز المادي الذي ربما يحكم به محمد (صلعم) لصالحهم وهكذا ينافق المادي إن كانت له مصلحة فهو مؤمن فإذا كان الأمر غير

ذلك كفر بالله وبالكتب السماوية واذا احتاج الأمر فإنه يحرف النص ويؤوله بأهوائه حتى رأينا الأحبار والرهبان والكهانة يفسدون ما أنزل الله من الكتاب ويقول القرآن ان موسى وعيسى بريئان من هذا التحريف الذي يتقوله أهل الكتاب في شأن شعب الله المختار فإذا كانت الحقيقة هو ما يقوله القرآن فمن أين دخلت تلك الأساطير الى اليهودية والنصرانية إلا أن تكون المقولات وضعت بيدي رجل الدين والكهانة وان موسى وعيسى ومحمد لا يختلفون في أمر الله وان ما يحدث بين اليهودية والنصرانية والاسلام لا بدّ أن يكون شيئاً مفتعلاً من الطبقة التي تستغل العامة باسم الدين حتى ليقول القرآن في شأن اختلاف الشرائع من ملة الى أخرى ومن أمة الى أختها ان هذا الاختلاف له مناسبات تاريخية وأحوال خاصة اقتضت ذلك لكن المبدأ الأول ما زال واحداً والله سبحانه وتعالى لا يبدل ما بقوم حتى يبدلوا ما بأنفسهم والتغييرات من شأنها الإضافة وليس السلب:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (٤٥).

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٦).

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (٤٧).

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن

لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَـٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٨).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(٥١).
المائدة

الكتاب السماوي يصدق بعضه بعضاً وما جاء في الانجيل قد جاء في التوراة من قبل وما جاء في القرآن هو مهيمن على ما نزل من قبل في التوراة والانجيل وانما شرع الله لكل أمة منهاجاً خاصاً بهم ليكون هناك تسابق على فعل الخيرات والمنافسة تؤدي الى الكمالات الربانية والله لم يكن ليعجزه جعل الناس أمة واحدة ولكن الحماس البشري يتطلب الاختلاف ومسألة الشرع وسيلة لا غاية والمبادئ العليا من السلام والإخاء الانساني لا يختلف عليها المبدأ الالهي والوحدة العالمية هي ما يريده الله للناس جميعاً ولن يتم ذلك دفعة واحدة لأن الطبيعة البشرية واختلاف الوعي يتطلب المرحلية والشرع لكل أمة بحسب ظروفها شيء معقول ومقبول.

لذلك يوجب القرآن احترام الأديان السابقة عليه ويندّد بسخرية اليهود من المسلمين:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٥٧).

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (٦٠).

﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾ (٦١).

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٢).

﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (٦٣).

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٦٤).

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (٦٥).

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٦).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٦٧).

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٦٨).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٩).

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٧٠).

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٧١).

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (٧٢).

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣).

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٧٤).

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥).

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (٧٦).

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (٧٧).

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨).

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٨٢).

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (٨٣). المائدة

لا يغفل القرآن عن شيء في دنيا العقائد فهو يكشف لنا عن معتقدات أهل الكتاب الواحدة بعد الأخرى ومنها التثليث ويبين ان تلك العقيدة قد نشأت في المسيحية من طائفة معينة ضلّت الطريق السليم فكان ذلك مادية دخيلة على المسيحية والدليل على ذلك تلك الطائفة النصرانية التي تؤمن بالروحية وتعرف ان المسيح ما هو إلا رسول الله مثل محمد (صلعم) وان الانجيل انما نزل ليطهر اليهودية من أدران المادية ولذلك يقول القرآن ان داوود وعيسى قد لعنوا الذين كفروا من بني اسرائيل حيث كان يريد داوود أن ينشئ مملكته على الروحانية والعقل ومثل ذلك قدمه عيسى لهم أيضاً وبيّن لهم ان ملكوت السماوات رهن بالمنهج الروحي ولا يفصل القرآن منهج داوود في هذا الموضع لأن تاريخ اليهود مسطور في قصص موسى «ع» وما جاء من بعده وانما يورد القرآن داوود وعيسى لأن داوود أول من أقام لليهود سلطاناً دنيوياً ودولة بين الأمم وعيسى آخر الأنبياء فيهم والقرآن يقول لنا ذلك لنعرف ان التاريخ اليهودي كله ضلال في ضلال وان الأخلاق اليهودية على مرّ العصور كانت أخلاقاً مادية ليس فيها من الكتاب السماوي شيء وان اليهود لا يرجى منهم خير ولا سلام ولا ايمان وان الصدام بين محمد (صلعم) واليهود قادم لا محالة.

يقول اليهود الماديون ان يد الله مغلولة لأن عقيدتهم أن الله لا يعلم الجزئيات وهذا بخلاف عقيدة الاسلام فإن الله يعلم كل شيء في دنيا الناس حتى الورقة لو سقطت من شجرة فإنه يعلم بسقوطها وهذا ما يجعل الضمير الاسلامي في منتهى اليقظة والحذر بخلاف الضمير اليهودي الذي مات بين الناس حيث جعلوا أحبارهم

ورهبانهم أرباباً من دون الله والقرآن يبين للناس أن ما خلفه ابراهيم من البيت الحرام وشعائر الحج وغيره من المناسك انما هي دلالة واضحة على وجود الله العيني وعلمه بالجزئيات من أمور الدنيا :

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٩٧). المائدة

هذه مشكلة الفلاسفة اليهود وهي مشكلة تحريف الكتب السماوية وما يجري بقلم الأحبار والرهبان فيقولون على الله ما لا يعلمون وتكون النتيجة كفراً بالله والروحية واستغلالاً للناس بغير الحق وهذا ما يحدث ويحذر منه القرآن ويتداركه مبيناً أن الله عامل بين يدي الناس والضمير الالهي في الأمة لا يمكن أن يغيب وخير دلالة على هذا الأمر ما يقدمه القرآن من هلاك القوميات قوم نوح وعاد وغيرهم ثم هلاك الأممات أيضاً ودمار ملك اليهود والمسيحية والاسلام خير شاهد على هذا الأمر. ولو كانت الديانات مع الله ما سلط الله عليها وجعل من أمة اليهود والمسيحية والاسلام ملكاً عالمياً لله وحده وهذه الكعبة وما تدعو إليه من السلام العالمي قيامة على منهج الله الذي يريده للناس ولكن الرأسمالية وغيرها أصبحت للناس رباً والدولار سيفاً للشيطان وغير ذلك من المناهج المادية المعاصرة.

المشكلة التاريخية تتبدّى لنا في سورة «البقرة» لكنها تأخذ طابعاً فكرياً متميزاً ثم نرى نفس المشكلة في سورة «آل عمران» من خلال النقد والتحليل ثم تظهر لنا سورة «المائدة» وقد غلب عليها الطابع الواقعي والحادثة اليومية لذلك نرى القرآن يقدم لنا أفعال اليهود ونفاق أهل الكتاب والصراع الذي نشب بين المسلمين وتلك الأمة التي عفا عليها الزمن. ولهذا الأمر يندد القرآن بهم ويقول انما اليهود وأهل الكتاب عبدة لكل موروث وكل فاحشة يقولون انهم وجدوا عليها الآباء وهم يقتدون بهم وبذلك ينكرون عقولهم ويعطلون مملكة الفكر لديهم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٤). المائدة

هذا الأمر الذي يأخذه القرآن عليهم هو نفس الموقف اليوم وان تقادم الزمن على الأمة يوجب اعمال العقل والفكر والنظر في التراث ويصير اليقين شكاً ولا يرى الناس إلا ما كان عليه آباؤهم والناس لا يصدقون إلا ما اعتادوا عليه من السلوك ولا ينفع فيهم موعظة. ولهذا يقول القرآن ان أمثال هؤلاء لا يمكن أن يهديهم بشر ولا رسول إلا أن يأتيهم العذاب من عند الله قبلاً وعندئذ فقط تكون كلمة الله مسموعة والآذان واعية وما يحدث للأمة من المصائب والمحن والنكبات انما هو العلاج الرباني الذي يهيّئ الأمة لقبول التطور والأخذ بالمنهج السليم.

ومسألة الحواريين وان القرآن يقول لنا من خلال ذلك ان عالم السماوات لا يعجزه شيء في الأرض وان ما حدث مع عيسى «ع» وتصديق الحواريين له سيحدث مع محمد (صلعم) وأصحابه انما الفارق الوحيد هو تلك المقولات المفتعلة من التثليث وهي المقولات التي أخرجت مسيحية عيسى عن مضمونها ولولا هذا الأمر لكان للمسيحيين شأن آخر وسيكون من محمد (صلعم) وصحبه روحية تحدث على يديها المعجزات التي تبهر الناس والله على كل شيء قدير:

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٢٠). المائدة

هكذا نتبين كيف تنشأ الرسالات السماوية في أرض الطهارة ثم تظهر الآفات من طبقة رجل الدين وما دام المسيح عيسى ابن مريم بريئاً وموسى بريئاً فمن هو الذي يفسد الأديان اذن؟

ان القرآن قدّم لنا التاريخ الديني لنعرف المتهمين والمفسدين لأمر الديانات والوصاية التي يفرضونها على الناس والمقولات المزيفة والعقائد المدسوسة وتلفيق

الأكاذيب والخرافات والشعوذة والسحر وكل ما هو ضد العقل والمصلح يؤخذ في الدين بالفاسق والفاسق يصبح ولياً بقدرة الكهانة وكم من شيطان أقاموا له ضريح الولاية وحددوا له مولداً يأتيه الناس من كل صوب وما علموه في حقيقة الأمر انهم يحتفلون بمولد شيطان وليلة كافر والله وحده هو الذي يعلم مصير الأمة في هذا الليل البهيم.

الفصل الخامس
المقولات في سورة «الأنعام»

اذا كان لمفكري الاسلام من البحث والتنقيب فلا بدّ لهم من جلّ الاهتمام بعلم المناسبة وعلم مقارنة الأديان وعلم الفقه الفكري الذي يدعمه الفقه اللغوي وأعني بالفقه الفكري تلك التراكيب ونشأة المقولات وتطورها لدى الأقدمين سواء كانوا يهوداً أو نصارى أو مسلمين لأن مثل تلك الدراسات وما يجري فيها من النقد والتحليل كفيل بإظهار الحق وكشف المنحرفات والاعتقادات الزائفة لهذا الأمر قدمت لنا السور السابقة مقولات شعب الله المختار والأمة العنصرية ومقولة الوصاية في غيبة الله. ورد القرآن على تلك الادعاءات وتقديم التاريخ العقائدي لكل تلك المنحرفات وبيان ان الدين الخالص والأمة السلام انما تتحقق من خلال المنهج الروحي الذي دعا إليه القرآن وبيّن من خلاله النور المشرق للوجود الالهي في حياة الأمة المقبلة وأن الله قيمة روحية وليست المقولات اليهودية والمسيحية إلا قيم المادية ألبست ثوب الله افتراء على الله وتنديداً بالمسلمين الذين يريدون الاصلاح لكن العنصرية تأخذ من التاريخ المزيف سنداً ومن الأنبياء والرسل أرباباً ليكون لها بين الناس الصوت المسموع والكلمة العليا.

لذلك نرى في القرآن ان محاولة فرض الوصاية على المسلمين قد ناقشتها سورة «المائدة» وبيّنت أن الله سيؤتي ملكه من يشاء وليست الأمة اليهودية هي التي تعطي الملكوت والسلطان ولهذا دعت السورة الاسلاميين أن ينتهلوا من المائدة السماوية التي

نزلت في القرآن وأن يعملوا بالشرائع الروحية التي جاء بها وأن يكون منهم الأمة التي لم تستطع اليهودية ولا المسيحية أن تحققها وأن يكون الحلم الذي راود ابراهيم بأن يكون من منهجه أمة قد آن أن يتحقق على يدي محمد (صلعم) وأمته وأن ذلك يكشفه القرآن لنعلم من يقف ضد التطور الى الزوجية وأن المادية لا يمكن أن تقبل العدل والمساواة بين الناس وأن الماديين في كل أمة هم بعينهم فسدة الدين وديانتهم دائماً هي العنصرية وهي دائماً جملة من الخرافات التي ينسبونها الى مقولات ليس لها من الحق شيء وأن الله لكل ذلك بالمرصاد وسترى أن الأمم لا تهلك إلا من انحرافات طبقة رجل الدين والذين يستفيدون من استغلال العامة والقرآن عندما يندّد بالأحبار والرهبان ويكشف براءة الرسل من المقولات انما يقول لنا ان تلك الطبقة التي تنشأ في الأمم بعد الرسل هي المسئولة عن المصير الذي تصير إليه الأمم وهي التي حرفت الكتب السماوية وهي التي وضعت الأباطيل والنصوص المزيفة وبدلت كلام الله وشوهت سيرة الرسل و جاءت بالافتراءات وعملت بالسحر وزورت الشرائع وجعلت من نفسها أرباباً من دون الله والعامة كما نعلم بترهبهم القول في الديانة والغلبة دائماً للنص على العقل عند الدهماء وما دام الأمر كذلك فمن السهل أن يجعل رجل الدين من نفسه وصياً على عقول الناس ووليّاً لهم من دون الله.

رأينا في سورة «المائدة» كيف يحاول القرآن وضع المنهج السياسي الذي ستسير عليه الدعوة ودور الحواريين والصحابة ومن هم في حكم الكوادر وبينت ان دور تلك الفئة خطير للغاية لأنهم هم الذين سيرثون الدعوة مثلما كان في المسيحية وان عيسى لم يتم ما نزل إليه وانما كان الحواريون هم نقباء الأمة وعليهم وعلى مجهوداتهم قامت الديانة ولذلك يقول القرآن ان شأن تلك الطائفة عظيم ومسئوليتها جسيمة وان ما حدث من مقولات التثليث انما جاء من تلك الفئة بعد أن تطورت الى طبقة رجل الدين وكان انحراف المسيحية على يديها وانتشارها على هذا المبدأ أو تلك المقولة هو من دس النصوص وتحريف الأناجيل ولذلك الأمر لم يتم في أمة الاجماع والطوائف في اليهودية مثلها في المسيحية مثلها في الاسلام. خير شاهد على أفعال طبقة رجل الدين والتحذير القرآني لنا في هذا الأمر جاء في سورة «المائدة» بمفهوم فرض الوصاية

ولكنه قد جاء في سورة «الانعام» بمفهوم جديد آخر هو مفهوم «الولاية» ولهذا وجدنا سورة «الانعام» تقول لنا ان الاختلاف بين المفهومين هو أن المفهوم بالوصاية انما أريد به وصاية أمة على أمة ومفهوم الولاية وصاية علم على علم وان القرآن يوضح لنا أن الولاية يجب أن تكون لله ولن تكون هناك ولاية لطبقة رجل الدين في الاسلام :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٤). الأنعام.

فالمسألة في تلك السورة هي مسألة المنهج العلمي للأمة وكيف تستقي المعارف ومن أي الجهات والمصادر وعلى أي أسس تقوم علمانية الأمة ولذلك سنرى النهج لا يحتاج لطبقة رجل الدين انما يحتاج لكل عقل يستقري آيات الله من حوله وهذا هو الذي يدعو إليه القرآن فيقول في مواضع كثيرة «أفلا تتفكرون» «أفلا تعقلون» «أفلا تتركون». والحض على أعمال العقل والفكر هو الركيزة الأولى لهذا المنهج لذلك أمر القرآن محمد (صلعم) أن يترك ما يقوله اليهود والنصارى الذين يمثلون طبقة رجل الدين والكهانة ويبين له ان تلك الطبقة هي التي حرمت كثيراً من الأنعام التي خلقها الله للناس غيرت خلق الله وزينت لكثير من الناس قتل أولادهم بغير علم ولا كتاب منير وجعلت لله قرابين بشرية ونصيباً من الأنعام لا لتصل الى الفقراء كما زعموا وإنما تصل إلى أيديهم وصكوك الغفران وما يشترون به من آيات الله خير شاهد على انحراف طبقة رجل الدين والكهانة ولذلك يوضح القرآن في كثير من المواضع أن اليهود والنصارى سيحاولون فرض سيطرتهم على الأمة وتقديم العقائد الزائفة والمقولات التي تتمشى مع ما يرون ولذلك كشف القرآن في هذا الموضع عن فئتين في المجتمع الأولى الفئة المثقفة بالدين وأطلق عليها اسم الانس والثانية العامة من الناس وأطلق عليها اسم الجن وكلتاهما تعادي الرسالات السماوية لأنها لا تتفق مع ما درجوا عليه من المادية :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ

بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١١٢).

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ (١١٤). الانعام

هذه هي المسألة الخطيرة التي يكشفها القرآن ويبين ان هؤلاء الانس يزينون للناس زخرف القول انه علم وهو ليس كذلك. اقرأ كتابنا (نظرية علم النفس القرآنية) ثم اقرأ كتابنا (البرهان في علم القرآن).

سيقول السفهاء وما هو المصدر الذي جاء العلم القرآني منه؟

للإجابة على ذلك أوردت سورة «الأنعام» جملة من الآيات الطبيعية التي خلقها الله ليقول القرآن لنا ان العلم الحق والولاية الحقة هي الفطرة والسنن التي أودعها الله في الطبيعة من حولنا واستقراء تلك الطبيعة هو الذي سيحسم اسلوب المنهج العلمي الحق:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (٩٥).

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (٩٦).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٧).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (٩٨).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٩٩). الأنعام

تلك هي الولاية ومصدر العلم والفطرة وهي كما نرى كلها آيات طبيعية وليس فيها نص توراتي أو انجيلي واحد وتدبر تلك الآيات الطبيعية واستقرائها واستنطاقها بالمعقولات والسنن والقوانين هو مصدر العلم في الأمة المقبلة وبهذا خلع القرآن عن النصوص الدينية مسئولية العلم وجعلها للعقل والآية الطبيعية وأصبح منذ ذلك الحين حتى الولاية للعلماء الطبيعيين وليس للكهانة ورجل الدين «العلماء ورثة الأنبياء» ـ الحديث ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (الآية). وان القرآن كان يعلم ويدرك أن التطور في الأمة المقبلة لا بد أن يجيء من العلمانية والعلماء الذين يعملون في شتى المجالات الطبيعية وهذا المنحى الذي نحاه القرآن كان يريد منه القضاء النهائي على العنصريات حيث رأى أن كل نبي أو رسول يخلف وراءه أمة تتحول بالتدريج على يدي طبقة رجل الدين الى شعب الله المختار فكان لزاماً أن تكون الولاية للعلماء وأن يحلّ العالم محل النبي وهذا ما يكشف لنا لماذا جعل القرآن نبوة محمد (صلعم) آخر النبوات ونهايتها وا ذلك ليضع حداً لمسألة الأممية والعنصرية التي كانت دائماً العدو المبين لله ورسله.

مسألة الولاية خطيرة جداً يجب علينا الانتباه بشأنها لأن طبقة رجل لا سلطان لها على الناس إلا من خلال العلم وهم دائماً عندما تأتي تلك المسألة يقولون ان العالم الذي يعنيه القرآن هو الفقيه رجل الدين وهذا الأمر قد فصلناه بين يدي تلك الآيات الطبيعية وان العالم الذي يعنيه القرآن هو ذلك الشخص الذي يبحث في الطبيعة ويستنتج القوانين الربانية التي وضعها الله فيها وبذلك يصبح نيوتن أفضل من رجل الدين وهذا الأمر الخطير ينتقل به القرآن لأمة الاسلام من التطور عن طريق النصوص القرآنية الى التطور عن طريق العلوم التجريبية والتكنولوجيا التي بدأها نوح

بصناعة السفينة وان الاسلام لله على يدي الرسل المختلفين خير شاهد اذ هو التجربة التي أوحى بها الله لكل نبي بشرط أن تكشف تلك التجربة عن سنة خالقة يكون من تطبيقها شيء نافع للناس وهو ما يكشف للناس اختلاف مناهج التوحيد رغم أنها تأتي من الله الاله الواحد.

يكتشف نوح قانون الطفو وهو قانون طبيعي ويكتشف ابراهيم وحدة النفس والوجود وهو قانون طبيعي أيضاً فيكتشف موسى السلام والحرية ويكتشف عيسى القدسية والمحبة في الله فيكون من ذلك إحياء الموتى. وهذا كله علم طبيعي انما كانت نبوات في زمانها لأن العلم لم يكن قد اتخذ مقومات وجوده الخالص.

لا بدّ أن نعلم نحن المسلمين أن الحضارة العلمية القائمة هي ما تنبأ به القرآن ووضع له المنهج السليم والولاية الحقة انما لم يتمكن السلف من ادراك هذا الأمر لأنهم أعطوا للفقيه وظيفة العالم. والأمر ليس كذلك اذ الفقيه في الاسلام هو من يجتهد الحكم السليم بين ما هو موجود بين يديه لا من يبحث في آيات الكون التي تخص العلماء وحدهم وهم ورثة الأنبياء والولاية الحقة هي ما كانت للعلم ونتائجه المتطورة:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٤) الأنعام.

تلتفت السورة الى فعل طبقة رجل الدين وتكيل به للأمة فتقول ان تلك الطبقة تفسد على الناس عقيدتها وتزين لهم عن الله أشياء ليست منه في شيء وتكون النتيجة ضياع القيم وانحراف السلوك وانحدار الحضارة:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢٣).

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ

أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٤).

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَٰتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٠٠).

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٠١).

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٠٢).

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (١٠٣).
الأنعام

تزييف العقائد الخاصة بالوجود الالهي تدخل به الكهانة ساحة العلوم وتفرض ولايتها على الناس ويكون من هذا الأمر طبقة مستغلة تعمل لصالحها حتى ولو كانت النتيجة تدمير الأمة والمجتمع الاسلامي والقرآن انما يقول ان الله هو الابداع الموجود في الكون وانه لا يدرك بالبصر ليقطع الطريق على كل كاهن ويفتح الطريق أمام كل عالم وطريق الله يتلطف العالم له ولا يُرمى بالافك أو الفرية على الله والخبير من علم أن البحث لا يكون في ذات الله وانما يكون في أياته والمسألة أكبر من الدين وحقله وأكبر من طبقة يعيشها. وهذا ما يجعل وجهة نظر القرآن غير وجهة نظر الدين في شأن الولاية ورغم ذلك نرى المفترين على الله يقيمون الأضرحة والقباب باسم الولاية لأناس ليس لديهم من هبة العلوم شيء وان ذلك وغيره من الخرافات قد وضع الأمة على عتبة التردي في هوة الأمم الهالكة من قبل:

— ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا..﴾ (الآية).

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١١٦). الأنعام

سبيل الله يقدّمه القرآن والفطرة والطبيعة ليعلم الذين يريدون فلاحاً ان الحضارة المعاصرة من جهة العلوم لا تتعارض مع منهج الله انما تتعارض مع أوجه استخدام العلوم والتكنولوجيا والسلام راية الله في الأرض ومن يتخذ العلم سلاحاً لفرض الطغيان لا يلغي دوره من أجل السلام والله نفسه يقول في شأن استباق الأمم الى الخيرات ان الأمم البشرية شأنها شأن مخلوقات الله الأخرى والحركة والمنافسة قد جعلها الله أسلوباً لبلوغ الكمالات وبالعلم يسبق الاسلام أمم العالم ويكون منه مثالية الأممية وقدوة في الدين الخالص يحتزى بها:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَـمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٨) الأنعام.

كيف يقول القرآن ان محمداً (صلعم) أول من أسلم؟ هذه المسألة غاية في الغرابة اذ أسلم من قبله كل الأنبياء والرسل ولو تدبرنا منهج كل نبي ورسول من قبل محمد (صلعم) والقرآن لوجدنا أن تلك الرسالة أو غيرها كانت تنبني على جزئية علمية معينة مصدرها هذا النبي أو هذا الرسول ولكن القرآن بمنهجه الجديد قد جعل مصدر العلوم ليس في هذا النبي ولا هذا الرسول انما جعله آيات الله الكونية والسنن والفطرة والطبيعة من حولنا وبذلك الأمر كان محمد (صلعم) أول من أسلم لله وآياته على هذا الوضع الجديد ولذلك أصبح أي رجل عادي يستطيع من خلال العلم أن يصبح نبياً مثلما يتنبأ عالم الفلك العصري بالتكنولوجيا عن قرب وقوع كسوف للشمس أو خسوف للقمر ثم يتحقق ذلك وأصبح القرآن بهذا المنهج المنفستو العالمي للشعوب والأمم كلها وأصبحت الانسانية أمام مسئولياتها بكافة الناس ولا غرابة أن نجد أن أمماً متخلفة قد أخذت بالعلم على مفهوم القرآن فكان منها أعظم العلماء وهم من عامة الشعب وأعظم المفكرين وهم من الدهماء. والنتيجة كما نرى اليوم قوة عالمية كبرى

تستقي مقوّمات وجودها من المنهج العلمي القرآني والمسلمون غافلون عن قرآنهم ولو عقل المسلمون تلك المسألة لعرفوا ان القرآن يريد أن يبني الأمة على قوة العلم بدلاً من الدين لأن العلم كما هو في الكون أشمل والله واسع عليم.

انهارت الأمة الاسلامية بسبب معاداة العلم أو جعله في مرتبة أقل مما يستحق ونقلت الولاية من العلماء الى الفقهاء فكانت الملل والنحل والطوائف والمذاهب والشيع والجماعات الاسلامية أخيراً. وهذا كله لا يبني الأمة ولا حضارة الاسلام اذ الاسلام لله هو الكون والطبيعة وآياته المنبثة في أرجاء الأرض والسماء وان محمداً (صلعم) والقرآن انما كانا يدعوان الى سبيل الله بعد أن ضلت البشرية هذا الطريق المستقيم.

ان الفجوة القائمة بين الأمة الاسلامية والمعاصرة هي الفجوة التي كانت موجودة عند قيام الدعوة بين اليهودية والمسيحية وقتئذ وبكل الأسف فقد سارت الأمة مسار ما قبلها من الأمم والمنهج الغائب هو داء الأدواء والمعاصرة ليست عدواً للاسلام وانما العدو الحقيقي هو ما يدور في أذهان أبناء الأمة من انعدام الصلة بين الماضي والمستقبل. ومعاداة التطور الخالق والابداع الجديد والله عندما خلق الأرباب جعلها في خدمة التطور وهو أيضاً رب العالمين. ولهذا الأمر تقدم السورة محاجة ابراهيم لقومه وتبين بحث ابراهيم في الكون عله يدرك ربه فاعتقد عند النظر أن ربه الكواكب ثم ما لبث أن اعتقد انه القمر عندما بزغ ثم اعتقد أنه الشمس لأنها أكبر. فلما أفلت الشمس عرف ابراهيم أن خلف تلك الظاهرات سنة وفطرة جعلها الخالق تتحكم في مساراتها وان هذا الملكوت الطبيعي هو ما يجب أن يتخذه الانسان مجالاً للمعرفة الصحيحة والعبادة الحقة وبذلك تنبه ابراهيم الى الفطرة أساس المعرفة الحقة:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (٧٩).

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ (٧٥). الأنعام

وهكذا عرف ابراهيم عند نظره في الكون أن هناك خلف الظاهرة الطبيعية ناموساً هو الطريق السليم إلى معرفة الله معرفة صحيحة. اهتمام القرآن بالعلم الطبيعي اهتمام كبير حتى أنه لم يورد قضية عقلية في القرآن إلا وقدمها بآية طبيعية فيما يعرف بالقياس الحسي الذي يقارن المعنوي بالمحسوس. وهذه البراهين تشير إلى الفطرة ولا يجب أن يخلق العقل الانساني موضوعاً يجافي فطرة الله التي فطر الكون عليها وليساهم الانسان في هذا المجال بالاكتشافات والمخترعات وليكون من ذلك كله الوحدة بين الله والعقل ثم لا يكون بين الناس تلك الاختلافات التي تمزق قوى الانسان وتفتت طاقاته.

الحيوان بالغريزة الربانية يعرف طريقه الى المعرفة السليمة ومشكلة المعرفة لدى الانسان مشكلة كبيرة وخير دليل على ذلك هو إرسال الرسل والأنبياء والمدارس الفلسفية الكثيرة في العصر الحديث وكل ذلك لأن العقل الانساني تداهيه آفات الادراك من الأبالسة والشياطين والجنيات والموروث من العادات والتقاليد والتقاليع والمعتقدات والخرافات والورث من الآباء والميراث من التجربة القومية والأممية وناهيك بالهوى والغرائز فانظر بعد ذلك أيكون الأمر سهلاً أمام العقل لادراك الحقائق اليقينية. ان الأمر بهذا الشكل صعب للغاية والتخبط الذي نراه في مشكلة المعرفة والذي يقدسه القرآن في تكذيب الناس للأنبياء والرسل والعلماء واحراقهم ومحاكم التفتيش وغير ذلك مما حدث في تاريخ نشوء المعرفة والعلم ليبرّر ما يقدّمه القرآن المرة تلو الأخرى في السور القرآنية الكثيرة.

الحلال والحرام مسألة تقوم العلم ويقول القرآن ان الكهانة قد ضلت الطريق الى المعرفة والعلم الصحيح ولذلك صارت طبقة رجل الدين شريكاً لله تحرم وتحلل ما تريده افتراء على الله:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ

وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١٣٦).

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (١٣٧).

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ (١٣٨).

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٣٩).

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ (١٤٠). الأنعام

إذا كان القرآن يقدم لنا تلك الافتراءات وتزييف عقائد الناس واليوم تستشري في الأمة أعمال السحر والجن والخرافات فمن اذن يقوم بهذه الأفعال ومن إذن له المصلحة في ذلك؟ ان اصبع الاتهام تتجه بصورة تلقائية إلى الكهانة ورجل الدين يجوب الأنحاء ناشراً لتلك السموم والأدواء بين الدهماء ولا وعي للناس بما قاله الله وما قاله رجل الدين فهو في نظر العامة سيدهم وتاج رأسهم والمتحدث عنهم وباسمهم أمام الله ولذلك كتب رجل الدين للناس تلك الصكوك التي تعفيهم من خطاياهم وذنوبهم أمام الله والقرآن انما يحزن على مصير الناس لأن الأمر ينتهي بقتل الناس لأولادهم وتكون النتيجة تحول رحمة السماء إلى عذاب للناس والله قد خلق كل شيء ليتمتع به الانسان :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (١٤١).

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٤٢).

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (١٤٣).

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (١٤٤). الأنعام

مسألة الافتراءات والتحريف ودس النصوص وتشريع الحدود لا يتعرض القرآن لها إلا من هذا الجانب العلمي وهو يرد على هذا الأمر بأن الله هو وحده الذي يحرم وهو وحده الذي يضع لكل كائن سواء كان ذلك الكائن نباتاً أو حيواناً ما يقيم به حياته فيحرم على الأسد مثلاً أكل النبات ويحرم على الغزال أكل اللحوم وهكذا تضع الطبيعة نظاماً للتحريم والإباحة وهذه الحدود الطبيعية هي أصل الدين الصحيح لأنه لا يوجد فجوة بين الطبيعة وخالق الطبيعة وهو بعينه خالق الانسان ومنزل الكتاب السماوي أيضاً.

يقدم القرآن ثمانية أزواج من الحيوان ويتحداهم أن يخبروه بما حرمه الله منها إن كان لديهم ما يعرفون به تحريم الأنعام وغيرها لكنهم يعجزون ويتضح لهم أن هذا التحريم لا يستند الى علم يقيني وانما هو افتراءات رجل الدين وافتراءاتهم على الله

والتحريم في الشرع له غاية ومنفعة وليس كما يفعلون في التحريم الذي تكون نتيجته حرمان الناس من النعم التي خلقها الله لهم وأن هذا الأمر يشوه الديانة ويجعل منها مضرة كبيرة كما نراها اليوم في تحريم اللبس وغيره وهذه الخرافات مع التطور والتداعي ومرور الأجيال تأخذ أبعاداً خطيرة فيكون من تلك العقائد ديانات وضعية كالبرهانية والصوفية والشاذلية وغيرها مما يسد الطريق الى الدين الخالص.

يقول القرآن ان التحريم الصحيح يقع لسببين الأول أن يكون الشيء رجساً أي لا يستسيغه الحس مثل الميتة والدم ولحم الخنزير أو يكون فسقاً أي لا يقع في العقل كقتل الصيد وقت الاحرام والجماع وقت الصوم وهكذا.

ورغم ذلك يورد القرآن في التحريم سابقات في اليهودية تشير الى أن التحريم كان يقع ككفارة وعقاب. ولهذا حرمت على اليهود أنواع ذو ظفر ومن البقر والأغنام حرمت شحومها وان مثل هذا التحريم ليس القاعدة وانما القاعدة هي الاباحة ما لم يقع الضرر سواء كان هذا الضرر حسياً أو أخلاقياً.

هذه أمور لا يجب أن تشغلنا عن القضية الأساسية وانما تكمن المشكلة في نفور الأمة من المغامرة والأخذ بالأسباب نحو التقدم الحضاري ومشكلة الناس ان العقائد وما يجري مجراها تسد عليهم دائماً الانفتاح على الآخرين ولا يستطيع انسان أن يتحرّر من اعتقاده . بالبديل الثقافي له وهو ما نحاول جاهدين أن نقدمه للأخوة وابدال الديانة وما يجب أن يتم عليه الاجماع شيء ليس بالهين وعندما نقدم للناس شيئاً لم يألفوه تأخذهم الصاعقة ويتلبّس عليهم الأمر وتنغلق الافهام وتكلّ العقول.

أخيراً تصل بنا سورة «الأنعام» الى المنهج والولاية التى يجب أن يأخذ بها المسلمون:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١٥٩).

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦١).

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (١٦٢).

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٦٣).

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (١٦٤). الأنعام

هذا هو الشاهد الحي على أن قضية العلم الصحيح والولاية لمن قد شغلت محمداً (صلعم) وأهمته والعقائد اليهودية والمسيحية والشرع الذي كان قائماً وقتئذ ومسألة الحرام والحلال وعمل رجل الدين في المجتمع الديني كل ذلك كان هم سورة «الأنعام» وشغلها الشاغل حتى انتهت الى أن العلم الحق هو ما يكشف عنه رب العالمين من السنن الكونية والطبيعية والنفسية والعقلية وان دور العلم في الأمة خطير للغاية ولا يستطيع انسان أن يتنبأ بما سيكون عليه الناس مع تطور العلوم وانما يحتم القرآن أن يكون هذا العلم مستنداً الى سنة من سنن الله ولا يجافي العقل. والاختلافات تقع عندما يتدخل رجل الدين ويفسر النصوص والكتاب السماوي بهواه ويكون في ذلك كما رأينا مللاً ونحلاً وطوائف ومذاهب وجماعات اسلامية وغير اسلامية تعمل جميعها على إفساد الفطرة والخروج على ما خلقه الله وأقره.

ليس هناك اذن تلك الفجوة المصطنعة بين العلماء والفقهاء وبين القرآن والطبيعة وبين الدين والعلم التجريبي انما الفجوة الحقيقية هي في أذهان أبناء الأمة وبين المعاصرة والحضارة القائمة التي لا تتعارض مع منطق القرآن لأنها تبني نفسها على العلم الصحيح والانحرافات التي سببت الحربين العالميتين ليست من العلم وانما هي من

الأخلاق ونحن نعلم أن العلم موضوع والأخلاق انساني مرده الى السلوك والاعتقادات التي قد تكون ضد الله والفطرة.

ان الاملاء والملة يتعرض لها القرآن لأن الدعوة لا بدّ لها من انتماء تاريخي في الدين والكتاب السماوي ملة تنفلت بين ما أنزل من عهد نوح الى عهد محمد (صلعم) واليهودية والمسيحية كملة تريد أن تفرض نفسها على منهج محمد (صلعم) وقد شرح القرآن ملة اليهود والنصارى وبين أن الكهانة قد أفسدت تلك الملل ولذلك يقول القرآن لمحمد (صلعم) ان ملتك واتباعك هو ملة ابراهيم «ع» وهي ملة الفطرة والطبيعة والله قيام على تلك الملة أيضاً.

ان مشكلة التوفيق واختيار الملة قضية تاريخية تظهر في الأمم عندما يحدث التصادم بين القديم والجديد. ولقد رأينا ذلك في الرسالات كلها حتى بعد قيام الأمة. واختلافات المذاهب تجيء تلك القضية. ولقد ظهرت تلك الظاهرة عندما فتح المأمون باب الثقافة اليونانية على المسلمين فدخلت مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة وكتب ابن سينا — وغيره والآن ظهرت أهمية التوفيق بين العلم الحديث والدين وهي كما رأينا لا تجافي ما نزل في القرآن لكن الأمر يحتاج لمزيد من أعمال المفكرين في هذا المجال لأن الربط بين المفاهيم هو الذي يرفع التناقض ويوضح اللبس ويزيل سوء الفهم ولذلك ندعو الأقلام لتبذل الجهد في هذا المضمار.

الباب الثاني

تاريخ العقائد المادية

الفصل الأول
سورة «الأعراف» وسورة «ص»

كم من تفسير كتب في القرآن؟ وكم من بحث تم في هذا الشأن؟ لقد تبيّن لنا ان العلاقات الفكرية التي تجري في السور القرآنية وبين بعضها البعض غاية في الأهمية واكتشاف العلاقات بالنسبة للموضوع الواحد من الأهمية البالغة لأننا لا نستطيع أن نستوضح الأفكار القرآنية إلا اذا جرت على النهج الذي نزلت به وبالترتيب والتسلسل الضروري لتداعي الأفكار ولذلك سنجد أن الموضوع الذي يربط بين سورة «الأعراف» وسورة «ص» هو موضوع واحد ورغم ذلك لا تأتي سورة «ص» قبل سورة «الأعراف» في المصحف الشريف رغم ثبوت نزول سورة «ص» قبل سورة «الأعراف» ونحن نعلم أن ترتيب الآيات داخل السورة قد تم بمعرفة الرسول (صلعم) نفسه ولكن ترتيب السورة بعد السورة انما وضعه الصحابة بعد جمع المصحف وكتابته في عهد عثمان وهذا مما يجعل على الباحث مسئولية جمع السورة الى السورة ليتم الموضوع الواحد بينهما وينكشف رأي القرآن فيه.

ان أهمية الموضوع بين سورة «ص» و«الأعراف» نتبينها من السياق التاريخي لهذا الموضوع حيث تقدم سورة «ص» قصصاً قومياً وقصصاً تاريخياً يكشف لنا هذا الموضوع بخلاف الجدل والمقولات. وهذا الموضوع لا يخص أهل الكتاب عامة بل هو يخص فئة الكافرين بصورة خاصة ولذلك ستتحقق أن الكافر بمفهوم الكلمة من

جهة الفقه هو المادي الذي لا يؤمن بالروحية وما يدور في فلكها من عقائد تخص الله والدار الآخرة.

لذلك تقول سورة «ص» ان التوحيد بعقيدة إله واحد لها فقه نفسي ولها فقه اجتماعي أيضاً ولهذا الأمر سنجد الفقه النفسي في سورة «ص» والفقه الاجتماعي في سورة «الأعراف».

ان تعدّد الآلهة كما رأينا في الوثنية والتوتمية وغيرهما انما كان صدى لعبادة الانسان للمنهج المادي وتلك الديانات المادية انما تضع لكل مطلب من المطالب المادية إلهاً يعبد دون الآلهة الأخرى حتى كانت الوثنية بصورتها المتطورة على يدي اليونانيين ولذلك كان للقوة إله وللجمال إله آخر ومثل ذلك كانت وثنية الأصنام لدى قريش اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وان ذلك قد كان بسبب عشق الناس لكل ما هو مادي يشبع فيهم هوى الطغيان والمتعة وغير ذلك مما يحقق المركز الاجتماعي المتميز.

الأمر اذن بهذه الصورة هو تاريخ البشرية كله وهو نفس المسألة والصراع الدائر بين ولاية المحسوسات أو ولاية المعقولات بين ولاية المادية أو ولاية الروح بين ولاية الدنيا وما فيها من شهوات أو ولاية الآخرة وما فيها من جنات ولذلك تقول سورة «ص» في قصص الأقوام الهالكين أمثال قوم نوح وقوم عاد وفرعون ذي الأوتاد وثمود وقوم لوط انهم جميعاً كذبوا بالروحية ولم يؤمنوا. وكانت النتيجة هلاكهم وانقراض حضارتهم ومثل هؤلاء الكافرين بروحية محمد (صلعم) والقرآن أيضاً.

التاريخ البشري كله خوض في المادية وصراع الغرائز والشهوات يطحن الانسان والوعي بالروحية ضئيل للغاية ونور الأمل في المنهج الروحي يقدّمه القرآن من خلال سيرة ذاتية لملوك استطاعوا عن طريق المعرفة السليمة لما يدور في نفس الانسان أن يقيموا ملكة الله فما هي تلك السير؟

تقول سورة «ص» ان داوود أخذ يتدبر ما يجري في نفسه بين الحوافز المادية المختلفة وتلك الطاقة الروحية الوحيدة وهذا الصراع الباطني يمزق الانسان فمرات تغلبه

الشهوات وأخرى تكون الغلبة لصوت العقل والروح وتبين داوود ان الغرائز المادية لا ينتهي لها مطالب حتى تجعل من الانسان خنزيراً ومن العقل قرداً وهنا ينتصر الابليس في النفس فيخرج من الجنة كما خرج آدم من قبل ويصبح جانب الله هو الجانب الأضعف وتصبير الروح في الانسان غريباً في الدار وعندئذ تحرق نار الابليس كل ما هو نبيل في النفس ويتربع الشيطان على العرش الذي أعده الله لنفسه وبين للناس عن طريق الرسل والأنبياء أن هذا هو المصير المنتظر للانسان ومسئولية الناس هي في هذا الشأن الاختيار بين ما يدعو إليه الأبالسة والشياطين وما يدعو إليه الله وأن داوود عندما تأمل تلك الحالة النفسية عرف أن مصيره مرتبط بانتهاج النهج الروحي في الحياة فكان من تلك المعرفة ملك داوود وسليمان وانهما ما قاما إلا على الفهم الصحيح لمعنى وحدة النفس الروحية ومقاومة الشهوات والغرائز واتخاذ جنب الله:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ (٢١).

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ (٢٢).

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ (٢٣).

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (٢٤).

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ (٢٥).

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا

تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (٢٦). ص

هكذا تصوّر لنا تلك القصة ما اعتمل في نفس داوود من الصراع بين الحوافز المادية والحافز العقلي الوحيد للروحانية وان القرآن يصور هذا الصراع في نصاب من مائة نعجة ونصيب المادية تسعة وتسعون ونصيب الروحية واحد في المائة ولذلك يغلب الانسان على أمره فيعبد الناس المناهج المادية وقليل من الناس من يعرف هذا الأمر ولو عرف الناس هذا الصراع النفسي وان مصيرهم مرتبط بالايمان بالله والروحية لكان للحضارة مستقبل آخر «اقرأ كتابنا نظرية علم النفس القرآنية»..

من أجمل الأفكار أن يتوصل الدكتور زكي نجيب الى تلك المعرفة في كتابه القيم «الجبر الذاتي» ويبين ان الانسان مختار بما هو مقداره ١ ٪ فقط وان هذا القدر الضئيل هو الذي يصارع الماديات المختلفة وان الله لم يكتب على الانسان قدره بل هو بما أوتي من هذا الجانب الطوري للروح في النفس أصبح مسئولاً أمام الله عن مصيره والدنيا ما هي إلا دار جهاد أي أن يخرج الانسان فيها منتصراً على الأبالسة والشياطين واما أن تغلبه الغرائز والشهوات على أمره.

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (١٧).
﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ (١٨)
﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (١٩).
﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ (٢٠). ص

ان الله يأتي ملكه من يشاء وسيكون لمحمد (صلعم) ومنهجه الروحي ما كان لداوود وسليمان من قبل. والكافرون لا يعلمون أن هلاك الأقوام في التاريخ لأنهم حاولوا إقامة المجتمعات على المادية. ولهذا يقول القصص القروي ان مادية قوم نوح هلكت ومثلها ما جاء على نفس المنهج مادية قوم لوط وقوم صالح وما قوم فرعون عنا

ببعيد حيث يقبع توت عنخ آمون الذهبي في متحف الحضارة الهالكة وأن ذلك الأمر قد حدث في تاريخ البشرية لأنها لم تعلم نفسها حق العلم. ولهذا يقول الحديث القدسي «من عرف نفسه فقد عرف الله». والمعرفة تبدأ بالتأمل والاعتكاف سنة الأنبياء والوحي السماوي لا يتنزل إلا على الطور الأيمن والتجرد من الهوى وكل أساليب التربية الروحية والأخلاقية هي التي تقيم الأمم والحضارات.

لا يذهب القرآن في شأن المادية مذهب التعميم بل انه من سيرة سليمان الذاتية يقدّم لنا التجربة الفريدة فيقول ان سليمان كان ملكاً على عرش داوود وتعرض لما يتعرض له الملوك من الاغراءات المادية خصيصاً اشباع الغريزة الجنسية وتردد سليمان في الاستجابة لهذا الحافز وقاوم في بادئ الأمر ولكنه في النهاية وقع أسيراً للمتعة الحسية وصار من تلك الحال كالعجل لا يتمتع من وجوده إلا في الجنس. ولكن هذا المنهج أفسد واجباته كملك للرعية والحكم يتطلب ملكاً عادلاً لا يطبق على نفسه المنهج الروحي قبل أن يطبقه على الرعية وتبين سليمان من التجربة فساد المنهج المادي الذي انتهجه وعندئذ قوم سلوكه وأصبح منذ ذلك الحين خليفة لله في الأرض حيث أتاه ملكاً تحدثت به الأساطير وطيرت به الآفاق. وهذا ما وعد الله به عباده المتقين:

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (٣٠).

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ (٣١).

﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ (٣٢).

﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ (٣٣).

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (٣٤).

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (٣٥).

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦).
﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (٣٧).
﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ (٣٨).
﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٩).
﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ (٤٠). ص

هذه هي السيرة الذاتية لسليمان ومن لطف القرآن انه يلح الى الجنس فيقول عن النساء الفاتنات أنهن الصافنات الجياد ومسحق السوق والأعناق ما هو إلا اشباع الرغبة «اقرأ كتابنا أهداف القصص القرآني» ولا يمنع ذلك من القول ان التجربة النفسية العميقة ومعرفة السلوكيات التي تتحكم في النفس هي البداية السليمة للمعرفة الحقة «اقرأ كتابنا علم النفس القرآني».

في هذا الصدد أيضاً تقدم السورة تجربة أيوب وتبين لنا فيها ان أيوب قد هداه الله لمنهج الصحة النفسية ومؤداه ان الانسان لكي يتخلص من الأمراض النفسية فعليه بالعمل والصبر وهما الوسيلتان اللتان يمكن للانسان عن طريقهما السيطرة على نوازعه وغرائزه وان هذا الاسلوب أسماه القرآن بالخلوص :

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ (٤٦).(ص).

وهذا ما يعرف في علم النفس المعاصر بالاستعلاء وتحويل السلوك البشري من الدونية التي ترتع في أغلال المنهج المادي الى عالم القيم الروحية والرقي الانساني.

كل المواضيع التي وردت فيها قصة خلق آدم من الطين وتسوية الله له ووقوف الشيطان والابليس في طريق الانسان انما تأتي لبيان ان الجانب الدوني الحيواني الذي استبطنته النفس الأولية يعمل في الجانب الشيطاني وهو لا يعرف إلا المادية النارية التي تنبعث في الشهوات والغرائز دون بصير من الانسان. ولهذا يكرر القرآن في غير

موضع أن هذا الجانب من النفس الأمّارة بالسوء يداهم الانسان دون وعي ويجري في عروقه مجرى الدم وجهاد النفس هو الجهاد الأكبر كما قال صاحب الدعوة وكما للعقل آفاته كذلك النفس أيضاً واعتقاد الأبالسة والشياطين انهم أفضل من الانسان انبنى على مقولة الخلق من النار وهو يؤدي معنى ما يعرف في علم النفس اليوم بالانفعالية اذ ان الانفعاليين غالباً ما يتسمون بالنشاط والحركة والعمل لكن القرآن يبين لنا أن الانفعالية النارية لها ضرورياتهااذ هي لا تعطي للعقل فسحة من الزمن ولهذا كان الانسان والصبر الذي يتمتع به خير من هذا الخلق الذي انطبعت فطرته بالنار التي جاء منها.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (٧١).

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (٧٢).

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٧٣).

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (٧٤).

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ (٧٥).

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ (٧٦).

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٧).

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ (٧٨).

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٧٩).

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ (٨٠).

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ (٨١).

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢).

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٨٣). ص

منهج التحليل النفسي استخدمه القرآن في قصة الخلق ولذلك ترد تلك القصة بصورة مختلفة وبحسب السلوك المادي للناس الذي يريد القرآن أن ينتقده ولهذا عندما يحدث السلوك المنافي للروح والعقل من الماديين يقول القرآن ان هذا من فعل الشيطان أو من فعل الابليس أو من فعل الجن وغير ذلك من تلك الاستبطانات الأولية التي قبعت داخل نفس الانسان عند النشأة من الطين وهذه المسألة تفيدنا كل الفائدة في معرفة المنهج القرآني للتربية السليمة وان التنمية العقلية لدى الناس لا بد أن تمر بالصبر والعمل وتنمية الجانب الالهي في النفس وان الخلوص من الغرائز لا بدّ له من مقاومة النفس والهوى وجعل الاستعلاء بالسلوك طبيعة والدار الآخرة لا ينالها المادي الذي خلد الى الأرض ولم يجعل غاية نفسه الصعود الى عالم الله والسماء.

اذا كان لنا أن ندرس المادية والتاريخ كما رواه القرآن فلا بدّ لنا من دراسة القصص واذا كان لنا أن ندرس الخرافة والأسطورة وآفات الاعتقاد ودور الكهانة في كل دور فلا بدّ لنا من دراسة القصص الأممي واذا كان لنا أن ندرس التربية النفسية فلا بدّ لنا من دراسة السير الذاتية للأنبياء والرسل واذا كان لنا أن ندرس التحليل النفسي فلا بدّ لنا أن ندرس قصة الخلق وهذا المنهج سيؤدي الى استخلاص التفاصيل التي يجب العمل بها لبناء المجتمع العالمي الروحي الذي يحلم القرآن به ونظرية الأرباب التي وردت في القرآن وأن كل رسول يأتي بما جاء به عن ربه انما أريد بها أن يعلم العلماء أن التاريخ الانساني يصنعه الفرد المختار الذي منحه الله تلك الطاقة الروحية التي يتحدث عنها القرآن ويريد منا أن نهتم وأن نصدق أمثال هؤلاء الذين يعبرون عن الطور الأيمن والجانب النوراني في النفس التي اتخذ الله منها مكاناً لعرشه وملكوت السماء لا تفتح أبوابه إلا لمن استطاع إليه سبيلاً.

لا يقدم القرآن القصص القومي في أي موضع من القرآن إلا ليدين المادية ولكنه يفعل هذا الأمر ويقدمه في ثوب فلسفة القصص التي نتعرف عليها في الأوجه المختلفة

للقصة الواحدة وخير شاهد على هذا الأسلوب تقديم قصة فرعون وموسى اختلافات عديدة في المواضع المختلفة من السورة القرآنية. ومعنى ذلك ان القرآن لا يقدم التاريخ وهو يبني فكر الأمة وانما يقدم فلسفة التاريخ وهذا الأسلوب الذي انتهجه القرآن له فائدة كبرى إذ يكشف بالنقد والتحليل عن العلة الغائية ويوضح الأسباب الأولية لما جرى لتلك الأقوام على يدي المنهج المادي.

في مقابلة منهج التربية النفسية الذي ورد في سورة «ص» يقدم القرآن فساد المنهج المادي وهلاك القوميات في سورة «الأعراف» ويوضح أن الماديين لا يدركون المصير الانساني ويغفلون عن الحياة الروحية التي تنتظر الانسان بعد الموت وأن الدنيا ما هي إلا مزرعة للآخرة والأعمال الدنيوية تظهر نتيجتها في الآخرة والناس هناك إما في الجنة أو في النار أو على الأعراف.

لكن السائل قد يسأل عن سبب التسمية وهي سورة مثل باقي سور القرآن التي ناقشت التاريخ المادي وللرد على ذلك لا بدّ أن نعلم أن التوراة والانجيل وهما كتابان سماويان وقد جعلا للآخرة درجتين فقط إما في الجنة وإما في النار لكن القرآن قدم للناس معلومة جديدة هي الدرجة الثالثة ما بين النار والجنة وأطلق عليها «الأعراف» ليكون من هذا الأمر رحمة للناس وبشرى من الله وباب للأمل حيث سبق علم الله بأن الانسان ضعيف وزلاته كثيرة والخطيئة تتربص به في كل سلوك لذلك سنرى أن أصحاب الأعراف هؤلاء سيكون مصيرهم برحمة الله الى الجنة.

يفتح الله للناس باب المغفرة والتوبة في الحياة الدنيا وفي الآخرة يجعل لهم الأعراف ويتلمس لهم المعاذير وهذا بخلاف ما ورد في التوراة والانجيل والشدة في الحدود التي أخذ الله بها اليهود والمسيحيين وان ذلك التطور الذي حدث في الحدود الاسلامية وما جاء فيها من تخفيف على الناس قابله تطور آخر في مفهوم الآخرة وما سيجري فيها من الحساب.

في نهاية سورة «ص» تأتي قصة الخلق ومعها الوصمة التي وصم الله بها ابليس أن لا يجعل له مكاناً في ملك الله وها نحن نرى تلك القصة نفسها وقد وردت في أول

سورة «الأعراف» وبتفصيل أكبر مبينة أن شجرة المادية التي زين ابليس لآدم أن يأكل منها رغبة في الخلود لم تجلب له إلا الشقاء والنتيجة هبوط البشرية الى دنيا الصراع والعداوة وهي البيئة التي يأكل فيها الأقوياء والضعفاء ويكون بين الناس من الحرب ما يدمر الحضارات الواحدة بعد الأخرى ولذلك يقول القرآن ان هذا الطريق هو مقبرة القوميات والأمم :

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢٤).

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (٢٥).

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٢٦).

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٧).

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨).

هذه هي مقولة اليهود يجدفون على الله ويتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون وتكون النتيجة أن الأمة تروى خلف الأمة في النار وهذا ما سيرويه القصص القومي في السورة :

﴿ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٨). الأعراف

قوميات وأمم وحضارات تتردى بسبب المادية في النار وتجري أحوال الناس على عبادة التراث ويأكلونه أكلاً لَمّاً ويحبون الناس حبّاً جمّاً ثم لا يسمعون كلمة الله فيهم والنتيجة كما رأينا.

كم من حرب نشبت بين بني الانسان وكم مزقت من الأجساد والأرواح وبين أيدينا ضحايا الحربين العظميين واليهود يشنون خمسة حروب في فترة لا تتجاوز ثلاثين عاماً وحرب فيتنام وحروب دامت مئات السنين وفرق ابن آدم أخاه ولم ترجع الناس عن عبادة الشيطان والمادية.

يتلمس الله سبحانه وتعالى سبل النجاة للانسان فجعل له من بعد المعصية والخطيئة التوبة والمغفرة في الحياة الدنيا والأعراف في الآخرة ليقول الناس ان رحمته وسعت كل شيء حتى العصاة والمذنبين وهذه الوسيعة القرآنية انما جاءت من قبيل البشارة للمؤمنين حتى يقول الله محمد (صلعم) اعلم أن ابن آدم أساسه الخطيئة ويلزم لهذا الأمر أن تكون حياته بين الحسنات والسيئات فتمحو الحسنة السيئة وان ذلك هو قدر الناس بين الايمان بالله والايمان بالشيطان حتى لا يخلو مؤمن من شيطنة.

الأنس والجن الطائفتان اللتان تحدثنا عنهما من قبل تورد قصة الخلق خبرهما في تلك السورة لتقول لنا انه ما دامت الولاية بين الناس ليست لله والمنهج الروحي فلا بدّ أن يأخذ رجل الدين موقعه بين الناس محل الله وتكون النتيجة انها في النار وهذا ما يوضح لنا خطورة الثقافة الدينية والكهنوت والطوائف والملل والنحل والجماعات الاسلامية التي تعمل في حقل الدين والايمان ولا تعرف المنهج السليم ولا الطريق المستقيم الى الله وان ذلك قد جعل الأمم تتردى في النار الواحدة خلف الأخرى وما أن تنتهي حضارة حتى تبدأ حضارة أخرى ثم لا تستمر لغياب الناموس الطبيعي في وجودها ولهذا يدعو القرآن الى الله والسنن وهما الفطرة التي فطرت السماوات والأرض عليها ولا يستطيع الانسان أن يبدل خلق ثم لا تكون النتيجة ما نراه

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣).

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٥٤).
الأعراف

ويكون الخلق وسننه في جانب والأمر بين الناس في جانب آخر كما يحدث في غربة الانسان عن ربه والمنهج المجافي للطبيعة والفطرة انما يجب التوحيد بالسنن بين ما خلق الله والأمر في دنيا الناس وهذه هي الولاية لله الحق وان غير ذلك من المناهج مصيرها البوار والقرآن يكشف لنا هلاك قوم نوح وغيرهم ليقول لنا ان المنهج المادي الذي يتبناه الناس ليس هو المنهج الرباني الذي جاء الخلق منه وانما هو منهج الأبالسة والشياطين والنتيجة كما ترون.

يأرق القرآن أشد الأرق على مصائر الناس وهم غافلون فلا يترك موضعاً ولا وجهاً ولا مقاماً إلا ويبين للناس ويفصل لهم الآيات ليقول لهم حذار من هذه الطريق المسدودة فإنكم لن تصعدوا السماء ولا الملكوت بهذا المنهج وطريق الشيطان مسهلة وطريق الجنة والله حفف بالمخاطر والخلوص في شهادة عيسى «ع» للملكوت السماوات كان صلباً وقتلاً وما حدث لموسى من قبل مع مردة المادية اليهودية شاهد حي على صعوبة القضية وتعقدها والجاهل الطاعن في الغفلة من أحسن الظن بنفسه ولم يأخذ لها الحيطة والحذر. ها هي سورة «الأعراف» تقدم تكذيب قوم نوح وهلاكهم ونجاة المؤمنين في الفلك ورغم ذلك لم يتعظ من جاء بعدهم فترى قوم هود يكذبون بالله رغم أنهم جاؤوا من بعد نوح وأكرمهم الله بطه وتطوراً في العقل والخلق ورغم ذلك كانت عقيدتهم هي بعينها ما درج عليه آباؤهم وعبادة المادية كانت سبباً في قطع دابرهم أيضاً.

في كل قصة توردها السورة تقول لنا ان النجاة كتبت للمؤمنين ورغم ذلك لم يكن هذا كافياً لهداية الناس وتصديق الرسل لأن المادية عقيدة أخطبوطية لها ذراع وألف ذراع حتى ليقول القرآن أتى قصة الخلق انها شجرة ما أن يتذوقها الانسان

حتى تتبدّى سوءاته الكثيرة والسلوك المادي متشعب لا نهاية له حتى رأينا قوم لوط يباشرون الجنس المثلي رغم ادراكهم أن الذكور بينة والأناث بينة ورغم ذلك تغلبهم المادية وعشقها على أمرهم والنجاة من هذه الكارثة لم تكتب إلا للمخلصين الذين جاهدوا أنفسهم وأخذوها بالشدة وطهروها من رجس الشيطان.

مشتاقة تسعى الى مشتاق فلم ينجح رسول ولا عظة في هداية قوم من الأقوام لذلك جاء قوم صالح وعشق الثموديون منهج القوة المادية ولم يعلموا أن القوة هي القوة الأخلاقية والروحية وبين لهم صالح الطبيعة وناقة الله خير مما يجمعون. ورغم ذلك لم يؤمنوا أيضاً وكانت النتيجة دمارهم رغم ما تحصنوا به من القوة المادية وهذا ما يفيض على النفس بالأسى وخيبة الأمل.

تتوالى القوميات القومية بعد الأخرى ويعشق الناس المحسوسات ولا يعرفون أن مصير الانسانية كلها انما ارتبط بالمعقولات وما تكشف عنه من العلوم والمعارف وها هي اللواطية يمارسها قوم لوط رغم انها تجافي الطبيعة ذاتها وما حدث ذلك إلا من خلال الغواية والتطرف المادي للمنهج الحسي في الحياة وما خلق الانسان له بل ان الانسان عندما خلقه الله من الطين تحذر له في الخلقة فنفخ فيه من روحه ليكون من تلك الروح مصير آخر غير خلائق الله جميعاً ورغم ذلك يخلد الناس الى الأرض ويقتلون في أنفسهم النور الرباني والفطرة السليمة وينحرف الانسان عن جادة الطريق الى الله فيخسر نفسه ويخسر مصيره الذي وعده ربه في السماء.

أعجب ما في القرآن هذا البيان الذي يثير في العقل كل الاحترام فيقول في قصة لوط وقومه ان امرأة لوط كانت من الغابرين ويريد من ذلك أن يقول لنا انظروا الى ما تفعله المادية كعقيدة ومنهج في الانسان انها تقلب فيه الطبيعة نفسها اذ كانت تلك المرأة وهي ما يجب ان تنفر من تلك العادة تعشقها ولا تجد مانعاً من ممارسة الناس لها وكان بالأحرى لها كامرأة أن تنهي الناس عن تلك العادة لكنها المادية اللعينة تقلب في الانسان حتى جبلته الأولية وتجعله يقف ضد نفسه ذاتها وهكذا وقفت امرأة لوط ضد بني جنسها من الاناث وكانت في صف الملاعين الذين يمارسون المثلية في تلك القومية البائدة.

ان أقرب الناس الى الرسل يكذبونهم فامرأة نوح وابنه خرجوا عليه وامرأة لوط كذبته ووالد ابراهيم يرميه بالجهل وعدم الخبرة وبني اسرائيل يعصون موسى ويهوذا الاسخريوطي يشي بعيسى فيكون صلبه وقتله. وهذه الأحداث التي يرويها القرآن تكشف لنا عن العمق الكبير الذي يعمل فيه المادية والعداوة والبغضاء لا تقع مع الأجانب فقط انما تقع مع أهل الأرحام أيضاً.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (١٠١). الأعراف

باستفاضة كبيرة تورد السورة قصة موسى المادية الفرعونية فتبين أن الماديين يعتبرون المعقولات سحراً ولذلك جاء فرعون بالسحرة وهم علماء والكهانة لديهم والآيات تبين لنا أن السحرة آمنوا بما جاء به موسى وهارون ليقول القرآن ان المنهج الروحي لو كان كذباً يفتري مثلما يفعل الماديون لما آمن السحرة ولما أعلنوا اسلامهم. والأصل في تلك المسألة أنه عندما دعا موسى «ع» فرعون وقومه الى المساواة والعدالة والاخاء الانساني لم يصدقه الفرعون لأن المجتمع لديه كان يقوم على فكرة الطبقات والطوائف ولذلك كان بنو اسرائيل هم عبيد هذا المجتمع وكان عليهم أعباء العمل والفراعنة سادة هذا المجتمع الذي يعيش عالة على نتائج العمل الذي يقوم به قوم موسى الذي دخل التجربة وعرف أن المبدأ الذي يفرق بين الناس لا يصلح لقيام المجتمعات حيث كان موسى يعيش في قصر الفرعون كابنه بالتبني ثم خرج من مصر لما قتل أحد المصريين نصرة للعبري وعندئذ عمل أجيراً في مدين. ومن ذلك التحول الاجتماعي في حياته أوحى الله بإخراج بني اسرائيل من أرض العبودية فكانت تلك المقابلة بينه وبين الفرعون الطاغية ومن يناصره من طبقة رجال الدين وهم الذين يطلق عليهم القرآن السحرة.

لا يؤمن الفرعون ولا يصدق موسى «ع» بما أرسل به من الاخاء والمساواة

ويقول لموسى انه لا يستطيع تصديق تلك المقولات لأنها من المعقولات وضرب السحرة لموسى مثلاً حيث جاؤوا بحبل ورقطوه كالحية ثم قالوا هذا الشيء الذي أمامك حبل أم ثعبان فأجاب أنه حبل ثم حركوا الحبل فبدا لموسى كأنه ثعبان واختلط عليه الأمر فقالوا له اذا كانت المحسوسات يداخلها الوهم كما رأيت فما بالك بالمعقولات التي لا ترى ولذلك لا نستطيع أن نصدقك في دعواك التي أرسلت بها لكن الله أوحى إليه بآية كبرى هي التجربة الذاتية التي خاضها مع الحرية ومع العبودية للغير فبين لهم أن ما يدعو إليه هو الصدق لأنه صاحب تجربة في هذا الشأن وهم لم يجربوا أن يكونوا أتباعاً للغير وأن ذلك ليوضح لنا مفهوم الموضوع بين السحرة وموسى في هذا الصدد.

يقول القرآن في موضع آخر ان المادي لا يعرف إلا المعيار بالمادة ولذلك قال الفرعون لموسى «ما أنت حتى تأتي الى مجلس وتطلب مني تحرير العبيد وأنا لا أعرف إلا أنك مهين ومن طبقة دنيئة ولو كنت من طبقتنا لكان معك أسورة من ذهب تتحلى بها مثلما يفعل الفراعين ويبدو لي أنك كذاب ونصاب تريد أن تفسد الناس علينا».

هذا المنطق يوضحه القرآن ليقول لنا ان الماديين أسرى لما يعبدون من الأموال والأنبياء «اقرأ كتابنا ايديولوجيا من القرآن» (المال والبنون) وهم لا يعتقدون في القيم الانسانية والمساواة والاخاء لا تخدم أغراضهم ولذلك تقوم المجتمعات المادية على الصراع بين الطبقات والمنافسة بين الطوائف وهذا ما يدمر أمثال تلك المجتمعات التي تعادي الفطرة التي فطر الله السماوات والأرض عليها.

لا يرتدع الطغاة بمنطق ولا بعقاب ولا ينفع فيهم دعوة ولا تقوم بينهم رسالة حتى النذر التي تجيئهم من الله لا يدركونها وذلك للطبع المادي الذي يغلبهم على أمرهم وها هم الفراعنة يرسل عليهم الله كافة الأمراض الاجتماعية التي تفتك بالمجتمع فلا يرجعون :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (١٣٠).

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (١٣٣). الأعراف

يرسل الله عليه الحروب الأهلية وقلة الانتاج وتتطفل الطبقات على بعضها ويتحدث السادة أكثر ما يعملون وتحدث الفتن وكل ذلك لا يذكرهم ولا يردعهم فلا يؤمنون.

يتعشق الانسان كل ألوان القوة المادية ويسعى إليها سعياً ثم يشقى بها ويمرض ورغم ذلك لا يفيق أبداً من هذا الكابوس الذي تحدثنا عنه الآيات ويغلب الناس الطبع وتكون النهاية دمار الحضارة وخير شاهد انقراض حضارة المصريين القدماء رغم ما كان للفرعونية من قوة وبطش والآيات تحدثنا عما كانوا يفعلونه في بني اسرائيل من التنكيل والتقتيل وان ذلك لم يحقق استقرار المجتمع ولا بقاءه.

غرق الفرعون وانتهت الفرعونية وقام المجتمع اليهودي الجديد على دعوة موسى «ع» وخرجوا من مصر فماذا كانت العاقبة؟

خرج بنو اسرائيل وذاقوا طعم وحلاوة الحرية وعرفوا قيمة المنهج الروحي والمساواة والاخاء ورغم ذلك ما أن مروا على قوم يعبدون الأصنام ويتخذون المنهج المادي سبيلاً للحياة حتى قالوا لموسى اجعل لنا آلهة مثل هؤلاء الناس:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَٰءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَٰمُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (١٣٨).

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴾ (١٤٠). الأعراف

لا فائدة من المادي أبداً يذوق طعم الله والحرية ورغم ذلك ترسف نفسه في أغلال المحسوسات والمادية ولا يدرك القيم اللهم إلا ما هو مادي بين يديه.

يوضح لهم موسى «ع» قيمة الله في حياتهم ويبين لهم أن ما أكرموا به من الحرية وأصبحوا أفضل المجتمعات في العالم انما كان بفضل اتخاذهم لله إلهاً ولكن القوم أشربوا المادية في مصر وأصبحت تأخذ عليهم جامع قلوبهم وعقولهم ولذلك لا يريدون موسى وربه وما جاء به من المنهج.

التجربة حية ساخنة بين أيديهم ورغم ذلك تعمى البصيرة ويرتدون عن دين الله حتى يهمون بقتل موسى الذي كان سبباً في منحهم الحرية والتحرير.

لفتة جميلة يحدثنا القرآن عنها عندما جاء موسى لميقات ربه فطلب موسى من ربه أن يراه رؤية العين فيقول له ربه ان العلاقة بين الانسان وربه لا تتم في المحسوسات ولذلك لا يمكن أن يرى موسى ربه ولكن العلاقة تتم من خلال المعقولات والتجريد ولذلك عندما تجلى رب موسى في المحسوسات صعق موسى ولم ير شيئاً وأن ذلك يقدمه القرآن ليقول لنا ان الله لا يتجلى في المادة انما يتجلى في معقول المادة وان المنهج الروحي من القيم المجردة هو عالم يدرك بالعقل فقط ولا نصيب للماديين فيه ولذلك كان طور موسى الذي يتمتع بالروح العاقل هو الطور المناسب لنزول الوحي عليه في بني اسرائيل وانما طلب موسى هذا الطلب الغريب من ربه جرياً على ما اعتاده من مادية القوم ليؤكد القرآن أن الانسان ينحو نحو المادية والمحسوسات لأن العادة لديه جرت على هذا الأمر وها هو موسى نفسه يتبع المعتاد في لقاء الله وكلامه والخطورة تكمن في استسلام الناس للماديات التي تطغى على العقل وتكون النتيجة آلهة متعددة برغبات الناس وأهوائهم.

قد يكون الطريق بيناً والعظة بالغة ورغم ذلك لا يؤمن المادي أبداً

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ

﴿ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (١٤٦).

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾ (١٤٨).
الأعراف

لو كان هذا العجل الاله يتكلم لكان معقولاً أن عبدوه لكنهم من فرط سفاهتهم عبدوه رغم أنه يخور مثل الحيوان ولم يشفع ذلك عند عقولهم لتهتدي إلى الحق وها هم قد خرجوا من مصر بالايمان والآن دخلوا في زمرة الكافرين لأن المادية تعمي الأبصار والقلوب أيضاً.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ (١٥٢). الأعراف

لكن القصة تقول لنا ان موسى عندما رجع ووجدهم على تلك الحال غضب غضباً شديداً وألقى الألواح وفي نسختها كان الهدى لبني اسرائيل حيث يبين القرآن أن ما ألقاه موسى كان أصل التوراة وما جمعه بعد ذلك كان نسخة منها لنعرف من ذلك أن الشعوب تغلب القادة على ما لديهم من المثل والقيم والرسالات تنزل من السماء تامة كاملة ولكنها لا تجد في الأرض البيئة الملائمة بين الناس فنقلوا ليأخذ الناس منها بقدر طاقتهم وما كان ذلك في دنيا الانسان إلا بسبب طغيان الماديات على الجانب الروحي ولذلك اختار موسى من قومه أشرافهم السبعين ليكون منهم نواة للأمة ورغم ذلك داخلهم الانحراف أيضاً وكان من كل سبط منهم أمة بذاتها لاختلافهم في الأخذ بما جاء في أصل التوراة حتى يقول القرآن في هذا الشأن ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ الآية». والغرض من ذلك ان القرآن يريد أن يوضح للناس ان التوراة لم تنزل بمشتملات الكتاب السماوي كله ولجهلة اليهود وعنادهم وأن عليهم الايمان بمحمد (صلعم) والقرآن لأنه نبي أميّ لم تداخله في دعوته ما داخل موسى وبني اسرائيل من قبل:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٧).

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨).

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٠).
الأعراف

ورغم هذا التمزيق وأخذ الحد الأدنى من التوراة كانوا يفتخرون على الناس بأنهم أهل كتاب وأنهم شعب الله المختار ولذلك راح القرآن يعدّد مخازيهم الواحدة تلو الأخرى:

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٢).

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٣).

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١٦٦).

﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٦٨).

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦٩). الأعراف

تاريخ المادية ينحدر من الأقوام القومية بعد القومية حتى يصل إلينا في قضية أهل الكتاب والنمط اليهودي الكالح وهو الوريث الحقيقي لهذا التاريخ المشين وهو تاريخ مليء بالسفه والغواية وبكل آفات العقل والانحطاط والتردّي ورغم ذلك يقولون للناس انهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم شعب الله المختار ويجب أن تفرض وصايتهم وولايتهم على الأمة الاسلامية.

في مقابل ملك داوود وسليمان وقد علمنا أن هذا الملك قد بني على منهج الله والتقوى يقدم القرآن التاريخ المادي الضائع لليهودية كدين وثورة من القوميات التي هلكت من قبل ولم يستطع موسى «ع» أن يدخلهم في دين الله وعبادة العجل وعصيانهم والخروج عن التعاليم السماوية يشهد بأنهم ليسوا في الخلق عند الله إلا قردة وخنازير ولن يؤمنوا اذن أبداً.

رحلة العذاب والكفر يرويها لنا القرآن ليقول ان ميراث المادية وعبادة الناس للتقاليد والعادات والتراث الذي يخلفه الآباء للأبناء كل ذلك يقف حائلاً بين الله والناس ورغم وجود الفطرة السليمة في كل نسل وان الذي يتربص بالانسان على وجه اليقين هو التسليم لما ورث من الاعتقادات التي تفضي بالناس الى التكذيب والكفر:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ

أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (١٧٢).

﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (١٧٣).

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١٧٤). الأعراف

ليس هناك حجة لانسان اذ لو قال ان الفطرة السليمة في النفس لم تكن موجودة لشهد الذراري بوجود تلك الفطرة ولو قال انه أشرك بعقيدة الآباء لكان الرد عليه أن هناك رباً يقوم على تلك وانما المسئولية الحق تقع على كل فرد لم يستعمل الامكانات التي خلقها الله له وأن هلاكه بالكفر انما حدث لأنه أسلم لما كان بين يديه من عقيدة الآباء وهي بالضرورة عقيدة منحرفة لما يداخلها من الأهواء والغرائز والشهوات الموروثة:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (١٧٥).

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١٧٦). الأعراف

لا فائدة ترجى من الماديين والمشيئة كما تحدّدها الآية هي مشيئة الانسان اذا أراد الهداية ولكن الناس يخلدون الى الأرض ويتركون السماء ولو كانت المشيئة مشيئة الله لآمن مَن في الأرض جميعاً ولكن الشياطين يتربصون بالناس وطبقة الكهانة لا تترك للعامة عقولهم حتى تفسدها ولا الكتاب السماوي حتى تحرفه ولا العقائد حتى تدس فيها السموم:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَٰئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (١٧٩) الأعراف.

ينتهي تحليل القرآن لظاهرة المادية والقوميات الى ظاهرة العنصريات ثم تتبنى تلك العنصريات على المقولات والتحريف و إفساد النصوص ووضع الكتب وخلق طبقة الكهانة ومتى بلغت الأمة هذا الطور فعليها الفناء وهذا هو ما حدث مع اليهودية والمسيحية والاسلام وراح ضحية هذا الوضع الانسان وقيمة الدين كقيمة عليا للحياة واليوم نرى القيم العليا لا توجد في مجتمعات الأديان وانما توجد تلك القيم في المجتمعات التي يطلق عليها أهل الأديان مجتمعات الكفر و الالحاد:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (٣٠).

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣١).

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (٣٢).

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (٣٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣٤).

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (٣٥). التوبة.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٥). التوبة.

دائماً يكشف القرآن المادية ويلعنها للناس لعلهم يرجعون ولذلك الأمر نزلت سورة «الأنفال» عندما بدأت الدعوة تأخذ طريقها نحو المادية حيث أصابوا عن طريق الحرب الغنائم وسارعوا يريدون الرفاهية المادية عن هذا الطريق وضح القرآن ان الحرب لله ورسوله وللقيم العليا وأن الغنائم ما هي إلا عرض وناقلة وموضوعها في الدعوة لله وللرسول وللمحتاجين من الذين آمنوا وليست طريقاً للإثراء الذي يفضي بدوره الى الكفر والمادية وان هذا الطريق يلوث دائماً الصورة المشرقة للدعوات حتى سارت فيها والقرآن حريص كل الحرص أن يتردّى المسلمون الى هذا المنهج وتلك السبيل التي كانت نهاية اليهودية والمسيحية فيها ولذلك يأمر القرآن صاحب الدعوة بتطهير قلوب المؤمنين من المادية فيقول له

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٣).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٤). التوبة

يقول المتطرفون بالعمى والضلال أتجمع بين المسلمين واليهود والنصارى؟ وهو لم يعلم أن أفعال المسلمين قد فاقت في المنهج المادي ما كان يعمل اليهود والنصارى من قبل والدليل على ذلك أنهم أحطّ درجة من اليهود ولو درسنا المجتمع اليهودي المعاصر لوجدناه يتمتع بقيم روحية عليا لا يتمتع بها مجتمع المسلمين ولعرفنا من ذلك السبب لهزيمة الاسلام وهي هزيمة ترجع بالصلة الى المادية وسمومها.

من أغرب مقولات طبقة رجل الدين والكهانة في الاسلام ما قالوه في شأن الملكية الخاصة وصراع الناس في الأموال والأولاد حيث أعلنوا للدهماء أنه لا يؤمن أحد الناس بالله ثم لا يكون على منهج الملكية الخاص وما تدعو إليه الرأسمالية من الطبقات وبرهانهم على تلك الفردية أن الله أنزل الميراث ليكون منه شاهد في هذا الأمر وما علم المبطلون أن الشريعة التي نزلت في الميرات والمرأة انما جاءت رداً على ما لدى اليهود والنصارى وهو تصحيح نحو الصواب وليس الصواب كله لأن التطور هو المبدأ الروحي الذي يلجأ إليه العلم الاسلامي كما أوضحنا من قبل ومعاداة طبقة رجل الدين للقيم العليا في النظم الشمولية انما يرسف في الطبقية وهم في وضع الامتياز ولا يقبلون بالأدنى أبداً ومثل ذلك بكل أسف تلك الطبقة التي تدعي لنفسها الثقافة وهي آخر من يقبل بالله والمساواة.

أهل الدين والعملة عليه يعادون الدين لأنهم صم بكم عمي فهم لا يدركون ولا يعون وان المادية تأخذ عليهم الطريق الى الله والقرآن يقول في غير موضع ان هناك من الناس من آتيناه آياتنا فانسلخ منها وكان من الغاوين ومثل ذلك الأمر ينطبق على رجل الدين وما يلقيه خلف ظهره وهو يعلم أنه الحق.

في النعمة الكبرى التي يخلفها المنهج الروحي واللجوء الى جنب الله يقول القرآن ان الأمانة الروحية التي تفيض على نفس الانسان نتيجة لذلك تجعل منه عالماً نفسانياً كبيراً يستطيع أن يكشف للناس بالتأويل عن المستقبل ذاته وما سيكون الأمر عليه والشاهد على ذلك تأويل يوسف لحلم الملك والكابوس الذي كان ينتابه في هذا الحلم والرؤيا التي رآها صاحباه في السجن وما صدق تلك الأحلام في الواقع كان شاهداً على أن المؤمن يتمتع بقوى روحية تمكنه من قراءة الغيب قبل أن يتحقق مثلما حدث مع يوسف ولذلك قال يوسف لزميليه من المصريين اللذين كانا على المنهج المادي —

﴿يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ (٣٩).

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٠). يوسف.

يدرك القرآن ان قضيته تكبر على الناس وفي كل مرة يقول القرآن وما آمن منهم إلا قليل وفي موضع آخر يقول ثلة من الأولين وثلة من الآخرين وهذه الدلالة لها مغزاها وهي ان عامة الناس لا تطيق الروحية وهي للمادية أخلد ولذلك وجب على ولي الأمر أخذ الناس بالشدة حتى لا تضيع قضية الله بينهم.

الباب الثالث

المنهج الروحي

الفصل الأول
أعمال الرسل والأنبياء

نوح والتطور :

وردت قصة نوح في سور عديدة من القرآن كان الهدف منها بيان موضوعات المنهج الروحي مثل الربوبية والألوهية والولاية ، وما يتصف به الله سبحانه من صفات الخلق وخواص الأمر وبذلك اختلفت الصياغة من سورة لأخرى وعرفنا من قبل أن القرآن لا يقدّم قصص الواقع وانما يقدم فلسفة القصص وهو وسيلة القرآن لتحليل التاريخ الديني منذ بدأت الرسالات وكان قصد القرآن أن يكون بين يدي المسلمين الصورة الواضحة لما حدث للأقوام والأمم ليكون من أمتهم الأمة الخاتمة التي تتمتع بالكمال الالهي والاستقرار الرباني.

ولذلك ما أن تبدأ السورة أية سورة في تقديم الموضوع المحكم حتى يأتي المتشابه وأوله القصص ليبين للناس ما كانوا يختلفون فيه وكانت القصص تطول أو تقصر بحسب الحال وما يتطلبه من البيان إلا أن هذا القصص لم يكن سيراً ذاتية للأنبياء والرسل وكان هدفه بناء الأمة السليمة على عموم المنهج ولذلك كان شرح وتفصيل أعمال الكافرين في هذا القصص أكثر من شرح أعمال الرسل والتفاصيل التي جعلت لكل منهم رسالة ونبوة.

لم يكن القرآن ليترك المنهج الروحي على التعميم وهو يقول ان كل شيء فصله

تفصيلاً ولذلك نزلت السير الذاتية للرسل كل باسمه فهناك سورة «نوح» وسورة «ابراهيم» وسورة «موسى» وسورة «هود» وسورة «يونس» وسورة «لقمان» وأخيراً سورة «محمد» (صلعم) وكل رسول من هؤلاء الرسل أوحى إليه الله بجزئية من المنهج الرباني حتى ليقول كل نبي منهم أنه أرسل بتلك النبوة عن ربه وان اكتمال المنهج جاء في نبوة محمد (صلعم) حتى ليقول محمد (صلعم) في هذا الشأن مثلي ومثل الأنبياء من قبل كمن بنى بيتاً فأتمه إلا لبنة ينظر الناس إليه فيقولون هلا أتمه فإنا تلك اللبنة والمعنى أنه وما أنزل إليه في المنهج الرباني تمام الرسالات السماوية وخاتمها في سورة «نوح» يشرح القرآن كيف أوحى إليه أن مصير الانسان مرتبط بالمعقولات وأن هناك للانسان طوراً آخر ينتج عن الجسد بعد الموت وان هذا الطور يتبدّى في الجسم البشري ومن خلال عضو التفكير على صورة العقل الخلاق وهو يطابق العقل الذي أبدع الكائنات ومنها الانسان نفسه.

لكن القرآن كمنهج للمعرفة الصحيحة يقدم الآية الطبيعية كبرهان على الآية العقلية ولهذا يقول نوح لقومه انظروا في الآيات الكونية من حولكم اذا كنتم تكذبون بالتطور والحياة الروحية في الآخرة وسترون ان المادة من خلال التطور أصبحت درجات مثل الشمس والقمر والنجوم والانسان نفسه قد خلقه الله من النبات حتى تدرج في مراتب الخلق والتطور الى الحيوان ومن الحيوان الى انسان وان ذلك عملية ابداعية مستمرة من عمليات خلق الله للكائنات من العدم وان العقل الأول يقدّم لنا ظواهر التطور ليقول لنا انكم ما دمتم تعقلون فإنكم صائرون الى مراتب الخلق والابداع وانكم من بعد الموت ستبعثون في هيئات العقول وما الأجسام التي تموت إلا مرحلة من مراحل التطور ولذلك لا يؤمن أحدكم بالله والروح المبدع حتى يؤمن بالتطور وينمي في نفسه تلك الملكات الابداعية.

القوم يرتثون في أغلال الوثنية المادية وهي كما رأينا تبدأ بعبادة ثم تنتهي بمنهج اجتماعي يصب سمومه في عشق الأموال والأولاد وما يجري في نفس مجرى الهوى والشهوات ويموت الجانب الروحي والعقل المبدع في الانسان والنتيجة ضياع الصيرورة الروحية التي كانت ستنتظر الناس في عالم الملكوت والمسئولية تقع على

الكافرين الذين لا يؤمنون بالتطور ويخلدون للأرض التي جاؤوا منها حتى يصدق المثل المادي الانجليزي من التراب الى التراب.

ماذا يضير الاسلاميين إن كان داروين في نظرية التطور ينسب عملية التطور الى البيئة أو الى الخالق كما جاء في قول لامارك؟ لا يضيرهم شيء حتى يعادوا المبدأ الأول الذي تنبني عليه الحياة خاصة الحياة العقلية السليمة.

ان المهم في هذا الشأن هو الأخذ بالتطور وتنمية القدرات الفكرية والابداعية للعقل والأمة انما أصبح حالها كما هو بين أيدينا من الانحلال والانحطاط بسبب الجمود القاتل الذي أصاب مناحي الحياة المختلفة حتى تفوق عليها ماديو الغرب والشرق على حدّ سواء

يقول نوح لقومه انكم تعبدون المال والبنين وهذا ليس غاية الحياة الانسانية انما غايتها الحقة هو الابداع والتكنولوجيا لأن التكنولوجي الأول هو الله سبحانه وتعالى الذي عمل ليل نهار ليكون من القوة العقلية لديه هذه الموجودات وتلك الكائنات التي تبتدي فيها النواميس والسنن والفطرة التي تشير الى وجوده في باطنها والانسان مطالب بما هو عقل أن يفعل مثلما فعل أبوه في الملكوت السماوي وأن يسيطر على البيئة المحيطة به بالعقل ولذلك بدأ نوح في صناعة السفينة للتغلب على مشكلة الطوفان وبهذا أصبح لأول مرة قانون الطفو وهو من طائفة المعقولات تكنولوجيا بناء السفن وعرف الانسان عندما نجا «نوح» ومن آمن معه في الفلك أن هذا هو المنهج الحق الذي يجب على الناس الأخذ به:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (١٠).

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ (١١).

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ (١٢).

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (١٣).

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (١٤).

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (١٥).

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (١٦).

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (١٧).

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (١٨).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ (١٩).

﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (٢٠).

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٢١).

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ (٢٢).

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٢٣).

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ (٢٤). نوح

تمكر الطبقة الغنية بالناس ويزينون لهم المنهج المادي غاية لكل حياة ويكبلون عقولهم عن البحث في آيات الله والوثنية ورجل الدين تأخذ على الناس مشاغلهم وآمالهم وكل ما قد كان في تلك القوميات عدد قليل من الكهان واليوم تخرج جامعات الأزهر الآلاف مضروبة في الآلاف يعادون التطور ويزينون للناس الملكيات والشهوات وكل منحط من الغرائز الدنيوية ويقولون للناس هذا هو الاسلام عدو دارون ولامارك وغيرهم ممن فتح الله عليهم بنهج الاسلام الصحيح.

مشكلة العلوم الدينية كلها أنها تخلو من المقومات الاسلامية الصحيحة التي تبغي منهج الله الخالص ولو سألت أي داعية عن اسلام نوح أو اسلام ابراهيم أو

اسلام موسى لأجابك بأنه عبادة الله وحده وهذا التعميم المخلّ بالمنهج العلمي اذ العلم اذا أريد أن يكون منهجاً فلا بدّ له من التفصيل الى الجزَئيات كما نفعل وأن المشكلة الدينية وقيام الجماعات الدموية والاختلافات والعصبيات وكل ما يمزق في جسم الأمة انما كان بسبب التعميم المضل.

اطلعت على كتب كثيرة ألفت في الاسلام ولم أجد واحداً منها يقدم المنهج أو يتحرّى التفصيل أو حتى سلوك الأنبياء وانما كلها تصحيح في تعميم وهذا هو الفرق بين الفكر الاسلامي والعربي والفكر العلمي لدى الماديين وبالجزئيات والتفصيل انبنت، وتطور الحضارة المعاصرة وبناء الآلة لا يتم إلا ترساً ترساً وهذا هو منهج العلوم التجريبية الذي يجب على العلوم الدينية أيضاً.

يقدم القرآن القضايا بالتفصيل﴿ وفَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً ﴾ويقدم المحكم والمتشابه ويضرب الأمثال ليتبين للناس جزئيات الأمر ورغم ذلك يفكر الدعاة بغير هذا المنهج والخطبة التي تعرف الناس عن الدين خير شاهد.

سيقول السفهاء من الناس ان الذي تدعوننا إليه هو دار الكفر ولم يعلم هؤلاء أن الله قيمه ولذلك يقول القرآن لا تدركه الأبصار وان القيمة اليوم هي في دار الكفر كما يدعون حتى ليقول أي نبي وجدت الله في الحضارة الاسلامية التي انهارت بلا قيمة ووجدته في الحضارة الأوروبية قيمة في كل شيء وان هذا الأمر يصنع الفجوة الحضارية بيننا وبينهم فهم قد أخذوا من الاسلام منهجه وأخذنا من الاسلام خرافات وأباطيل.

سيقول المبطلون ان الصلاة والصيام والعبادات هي التي تفصل بين الكافر والمؤمن ونقول لهم لا ان الذي يفصل بين الكافر والمؤمن هو النهج المادي أو النهج الروحي وكم من كافر باعتقاد الناس دخل الجنة عند الله وكم من مؤمن باعتقاد الناس دخل النار والقرآن نفسه يقول هذا في مواضع كثيرة ورمي الناس بالكفر والتطرف في الرأي لا يجدي شيئاً انما الدراسة والمنهج العملي في الأمر هو الفيصل

في الايمان والكفر والاسلام الصحيح والاسلام التقليدي وهذا مما يجب أن تلتفت إليه العقول والافهام.

كم من الناس قرأوا سورة «نوح» وكم من الفقهاء والمفسرين وكم من المفكرين والخطابيين وكم قرأ تلك السورة ملايين من الناس ورغم ذلك لم يدرسوا القرآن يقول لمحمد (صلعم)

﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴾

وهناك فرق كبير بين التصدي للقضية ودراستها دراسة منهجية علمية.

يقول مالك بني في غياب المنهج ان الحضارة الاسلامية لم يكتمل لها منهج إلا في عهد رسول الله فقط وما أن ثوى محمد (صلعم) حتى غاب عن الاسلام منهجه وبدأت الغربة واضحة بين الصحابة أنفسهم وطلت رؤوس الفتنة بعد أن تخمرت في عهد أبي بكر وعمر وكان قتل عثمان.

ماتت بموت صاحبها العظيم وتنبأ هو نفسه بهذا المصير حتى ليقول ان الاختلافات والفرقة ستحدث بأمته مثلما كان من اليهود وهو يعرف سموم المادية وسطوتها على الناس.

رأينا هلاك الدعوات في الانسانية بموت أصحابها لذلك يجعل القرآن الوصاية والولاية لله وآياته والسنن والنواميس القائمة في الطبيعة ويندد القرآن بمن يفرق بين الله وآياته الطبيعية ويقول ان الخروج على الطبيعة والفطرة هو الفسوق والعصيان والأمة العربية والاسلامية تجافي كافة العلوم الطبيعية وتنتهج منهج الالهيات وهي لا تعلم ما هي الالهيات وتدعو للاسلام وما تعلم ما هو الاسلام وتقول بالايمان وما تعلم أسرار الايمان وتقول بالله الواحد ولديها ألف وألف شريك لله سبحانه وتعالى.

يمر القرآن ما بين نوح وابراهيم فلا يقدم للقوميات وأنبيائها سيراً ذاتية أمثال تلك القوميات قوم هود وقوم لوط وقوم صالح وغيرهم لأن تلك القوميات كما شرحنا من قبل أقامت مجتمعاتها على مسلك في الحس والغريزة ولم تتخذ لها منهجاً عقلياً تتبنى عليه أمة أو تقوم عليه دعوة ولذلك لا يقدمها القرآن في المنهج الروحي الذي يبنى وجوده على المعقولات والقيم التجريدية.

ثم يأتي ابراهيم بعد نوح في المنهج فيقدم للناس ما أوحى إليه ربه ولذلك نزلت سورة «ابراهيم» بعد سورة «نوح» لأن نوح انما بين في المنهج مصير الانسان وما يجب على كل فرد أن يتبناه وأن الوجود المادي ليس غاية في ذاته وانما هو وسيلة الى العالم الروحي الذي تقوم فيه الحياة على المعقولات والابداع والخلق وأن القرآن أراد أن يقدم الوجودية الدينية لدى نوح ليقول لنا ان المادية التي عاصرت نوح كانت نوعاً من الفوضوية التي تعرف غاية الوجود ولذلك رأينا قوم نوح لا يؤمنون بربهم ولا يعرفون أنفسهم ولا المصير الذي سيصيرون إليه وانما يتبعون الأهواء المادية والغرائز التي جاءت من الأصل الحيواني الذي أنشأه الله من الطين في أصل الخلقة وأن نوحاً أدرك بالوحي أن للانسان مصيراً آخر غير المصير المادي وأن ظاهرة الموت ما هي إلا مرحلة من مراحل خلقها الله مثلما خلق الخطوات المختلفة لظاهرة التطور كما نرى في عالم الحشرات اذ البرقات تصير بالتطور الى حوريات ثم تتطور الحوريات الى فراشات والقرآن يقول في تلك الظواهر أن ظاهرة القوم ما هي إلا ظاهرة للتطور أيضاً وأن الكائن عندما ينام انما يكون في حياة روحية تخلع عنها الجسد لتعمل بكامل طاقتها وأن الأحلام والرؤى في الانسان خير شاهد على هذا الأمر وأن المنهج لدى نوح كان يتوجه بالناس الى تلك الحياة الربانية التي ترفع الانسان الى عالم الملكوت ولهذا وجدنا كل الرسل يدعون الناس الى عالم السماء الذي لن يستطيع انسان أن يدلف إليه إلا من خلال المنهج الروحي. لذلك كانت سفينة نوح لا تحمل إلا أزواجاً ولم يكن فيها مكان للجماعات والأمم ليبين القرآن أن المصير الروحي المنتظر هو مصير شخصي لكل انسان وما يؤهله ولذلك قال له «وأهلك» وان هذا الكشف العلمي هو ما يعرف في علم النفس «باعتبار الذات» وتنميتها تنمية عقلية ولذلك

دعاهم نوح الى استخدام المعقولات والقوانين التي تكشف عنها في السيطرة على البيئة والطوفان الذي يداهم السنة بعد الأخرى.

القرآن يحدّد المنهج ويفصل جزئياته كي لا يكون للناس على الله حجة وها هو ابراهيم بالوحي يكشف جانباً آخر للمنهج واذا كان نوح أعطى صورة المنهج في حياة الأفراد فإن ابراهيم قد أعطى لنا صورة المنهج في حياة الأمم ولذلك يقول القرآن في ابراهيم أنه وحده وبمفرده كان أمة وقدوة للسلوك الاجتماعي الذي ينبني مبدأه على السلام والاخاء في الله.

نوح يصنع السفينة تطبيقاً للمنهج ليبين للناس أن الانسان الروحي الكامن في العقل وهبه الله ادراك المعقولات والسنن والنواميس والقوانين التي استبطنتها الظواهر المادية وخير شاهد على ذلك إمكان تطبيق قانون الطفو وصناعة السفن التي تمكن الانسان من النجاة وقت الطوفان وان ابراهيم قد أوحى إليه الله بالسفينة التي تنقذ الأمم من الانهيار والفناء وان تلك السفينة ما هي إلا السلام ولذلك طبق ابراهيم هذا المبدأ وبنى بيتاً لله جعله آمناً ودعا الناس الى الدخول في أمة الاسلام وترك الصراع وافشاء المثل العليا والقيم الأخلاقية التي تبني للمجتمع البشري التقدم والرقي.

فالبيت الحرام الذي تتمتع بيئته بالأمن والسلام جاء تطبيقاً للمنهج أيضاً ودعوة عالمية أدركها ابراهيم من صغره والقرآن يقول ان الله قد أنعم على ابراهيم بالرشد وهو ما يزال صبياً اذ أدرك ابراهيم أن الوثنية المادية في جانبها الاجتماعي جعلت من الملوك وطبقتهم أرباباً للناس من دون الله ولذلك قدم القرآن لنا المحاجة بين الملك الطاغية ورب ابراهيم فكان أن قال الملك بما بين يديه من القوة المادية أنه يحيي مثل الله ويميت مثل الله أيضاً لكن ابراهيم بيّن له أن الحياة تحكمها النواميس من باطنها وهو لا يستطيع السيطرة على الباطن حتى ولو سيطر على ظاهر الحياة وكانت النتيجة ان ابراهيم شد رحاله الى الله وهاجر الى الأرض التي يستطيع أن يحقق فيها منهجه ولما جاء الى الحجاز كان لسانه يختلف عن لسان القوم ولكي تكون دعواه بينة فإنه بنى

البيت الآمن ليكون منه خير شاهد على ما يريد ولهذا أيضاً فرض الله الحج على الناس ليعلموا أن الله لا يمكن أن يقبل من الناس في حياة الاجتماع إلا الأمن والسلام والاخاء والمحبة.

الفرقة والاختلافات في الله والغربة والمادية اللعينة وصراع رأس المال والطوائف والملل والنحل والجماعات تعمل على تمزيق الناس لكن الله يريد الأمن والسلام للكافة لذلك الأمر أراد ابراهيم أن يوقن من صحة هذا المنهج فيقع في الشك ويبدأ البحث عن ربه كما بيّنا من قبل لكن الله لا يترك ابراهيم فيوحي إليه أن يمزق أربعة من الطير ثم يجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم يدعهن إليه وسيجد أن تلك المخزقات اتحدت وصارت حية فيه وأن ذلك البرهان يقدمه الله لابراهيم ليقول له أن ربه الباطني لا تقوم حياته إلا على الوحدة والأمن والسلام هو المنهج الرباني الذي يحقق للناس تلك الحياة التي أودعها الله فيهم وأن الصراع في رأس المال والملكيات وغيرها يدمر حياة الناس الباطنية التي هي غاية وجودهم ولهذا يقول القرآن ان رضى النفس وطمأنينتها والمحبة التي تجمع ولا تفرق هي الوسائل التي تقيم حياة الانسان وتجعله كائناً ربانياً وأن الناس باعتناقهم المادية يقتلون أرواحهم دون ادراك أو دراية.

من حكمة القرآن وشديد بيانه أن يضع يدنا على القضية مباشرة فهو يقدم محكم السورة ابراهيم ثم يقدم قصص موسى وطغيان الفرعونية ويلحق بقصة موسى ومناداته بالمساواة والاخاء قصص الرسل من قبله قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ليبين لنا أن الصراع بين المادية والروحية امتد من الأقوام الهالكة حتى دعوة موسى ماراً بابراهيم ليجعل من ذلك كله منهجاً واحداً هو غاية ما يدعو إليه الرسل وان هذا المنهج انما يدعو الى الله والفطرة:

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٠).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٨).

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٩). ابراهيم

هذه هي قضية السلام التي دعا إليها ابراهيم وموسى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٣٥). ابراهيم

والقرآن يربط بينها وبين هلاك الأقوام نوح وعاد وثمود ليقول لنا ان المنهج الروحي الذي دعا إليه الرسل منهج واحد والقوميات التي كذبت الرسل والحضارات المادية من جنس واحد وان الدعوة إلى الله وآياته ومعرفة ماذا يريد الله من الناس منهج فطري:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ (٣٢).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٣٣).

﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٤).

أي بعد تلك النعم المسخرة بأمر الله يعدل الناس عن طريق الله ويستمدون الولاية من دونه.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ (٣٠). ابراهيم

عندما يتحدث القرآن عن القضية الاجتماعية فإنه يوردها ضمن مسألة الألوهية ليعلم أن هذه الجزئية في المنهج تخص العلوم الاجتماعية ولذلك يقول دائماً في نهاية التحليل:

﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ (٥٢) ابراهيم.

ولكن عندما يقدم مسألة التربية فإنه يقدمها من خلال الربوبية ويقول للناس ان التربية الصحيحة هي ما كانت للفطرة ولأن الأولاد ينشئهم الله عليها والآباء والأجداد يهودون الأولاد أو يجعلونهم مسيحيين أو مسلمين أو صابئين أو مجوساً أو غير ذلك من ألوان الملة والله يدعو للسلام لكن العقائد التي يخلفها الأجداد للأجيال لا تدعو إلى السلام وانما إلى العنصرية والمادية.

سنلاحظ في المنهج أن القرآن قدم له من خلال الرسل الالهيين وهم الذين بنوا دعواتهم على التوحيد في مجال علم الاجتماع أمثال ابراهيم وموسى

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (الآية)

وكان غاية هذا المنهج هو العالمية وبناء أمة كافة الناس على مبادئ الإخاء والمساواة والسلام ثم قدم له من خلال الرسل الربانيين في مجال علم النفس الفردي الذي يدعو إلى تنمية القدرات الروحية في كل فرد حيث يبين التطور في القرآن ان الناس يختلفون في بلوغ الأطوار ولذلك يقول القرآن في حق موسى انه الطور الذي رفعه الله فوق بني اسرائيل فكان منه وحده نمطٌ روحيٌ منفردٌ اصطنعه الله على عينه ورباه بكفل رعايته حتى كان منه موسى كليم الله سبحانه وتعالى.

الذين يدعون الى السلام والاخاء والمحبة والمساواة كلماء الله وأخلاؤه والذين يدعون الى الصراع الطبقي والطائفي والعنصري أولياء الشيطان فقاتلوا أولياء الشيطان

والماديين أينما وجدتموهم إن كنتم تريدون أن تكونوا على منهج الله والقرآن ، لكن الهوس الديني الذي يبني حياته على العبادات وقد بين القرآن أنها مناهج نكسية بين العبد وربه لا يفيد في شيء فقط يزيد هذا الهوس في الدور الذي تلعبه الكهانة في الأمة وهو دور مشبوه في كل سور القرآن.

المنهج الروحي في القرآن يقوم على دعامتين رئيسيتين الأولى الربوبية والثانية الألوهية وكثير من المفكرين لم يدرك الفارق بين معاني الربوبية ومعاني الألوهية وهذا الخلط كان سبباً في التعميم المخلّ الذي يذهب بالمفهوم الصحيح لما يريده القرآن وما يتبناه.

المسائل بين الرسل والله ربوبية وكل رسول انما يقول للناس «أنا بعثت عن ربي وما أحدثكم به هو الذي أوحى به الي» لكن عندما تنتقل المسائل بين الله والناس تصبح موضوعاً للألوهية ولذلك يقول الرسل للناس إن كنتم لا تعرفون ربكم مثلما عرفنا فليكن ربكم الله سبحانه وتعالى ونحن نبين لكم منهج الله ودينه الخالص.

مقدمو الثقافة العالمية ومحدودو الثقافة الدينية ومطبوعو العقل وعابدو النقل والتراث تقابل الواحد منهم فلا تعرف له هوية أهو انسان أم صورة انسان مشوهة لا يجادلك بالعقل انما يجادلك بالوظيفة والدرجة العلمية التي يتعبدها المبطلون الوارثون لأدواء الأجداد وما يمشي في المناهج المتخلفة ولو حاولت أن تبين له لقال لك مثلما يقول الأعمى ـ «انما سكرت أبصارنا» ـ ولا ينفع فيه منطق ولا ينفع فيه دراسة ولا تقوم له حجة وانما هو حامل لأختام الكهنة وولي الناس من دون الله.

شهادات ورسالات جامعية ودرجات الدكتوراه ، والماجستير كل ذلك في الدين وهو فكر وليس كما يدعي الكهنة تخصيصاً تجريبياً ولقد يفوق في الفكر أحد العامة كبير أختام كهنة آمون ولا يعترفون إلا بالدراسة وليست الدراسة قيداً على العقل الحر الذي أبدعه الله وقد رأينا أن الله يوحي الى الأنبياء والرسل ثم يوحي الى النحل والأولى من النحل أن يوحي الله الى أحد الناس فيكون منه مفكراً مبدعاً وعالماً تقصر دونه هامات الدارسين وقد تعرض عيسى «ع» لنفس هذا الموقف الذي

تتحدث فيه اذ قال كهنة المعبد أن الذي يتحدث في التوراة لا بدّ له من الصلب ولم يصلب عيسى إلا ليكون وصمة عار في تاريخ الكهانة الدينية كلها ولو جاء صلبه على يدي الرومان.

المطبوعون من أحبار اليهود يتسببون في صلب روح الله ثم تدور القرون بعد ذلك فيكون من حادثة الصلب نفسها قيامة لعيسى وروح الله ويكون من المسيحية أمة تتهاوى تحت أقدامها أقدار اليهودية وتصبح في الناسَ أمة زائلة ينظر إليها الناس بعين الريبة والحذر.

هود والقوة المادية :

قدم لنا القرآن في بيان المنهج الروحي دعوة «نوح» ودعوة «ابراهيم» وأراد من ذلك أن يقول لنا ان المنهج يقوم على موضوعات جزئية هي التي يقدمها كل رسول بحسب ما أوحى إليه الله وغرق قوم نوح وهاجر ابراهيم الى الله وبقيت القوميات رغم ذلك تظهر في التاريخ الحضاري وجاء من بعد قوم نوح قوم هود وتبين لهم من تجربة نوح مع قومه أن المنهج الروحي هو مناط النجاة واستمرار الحضارة ورغم ذلك أقاموا حضارتهم على القوة المادية فأوحى الله الى «هود» أن يبين لهم ما ينتظر حضارتهم من الهلاك والدمار لأنهم لم يقيموها على منهج الله وانما أقاموها على منهج الشيطان والمادية :

﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ (٥٢). هود

وهكذا أدرك هود لأول مرة في تاريخ الحضارة أن المنهج الأخلاقي هو الذي يتحكم في مصير القوة المادية وإن عادوا وأرادوا ازدهار حضارتهم وتمتعهم بالقوة فإن عليهم أن يقيموا التوحيد فلا يعبدون إلا الله ويكون من ذلك السلام الاجتماعي الذي يضمن للمجتمع الاستقرار والتقدم.

لو تدبرنا ما جاء في قصص ابراهيم ولوط في نفس السورة «هود» لوجدنا ان ابراهيم قد رأى الملائكة المرسلين لقوم لوط وان لوطاً نفسه قد رآهم وان الله له جنود السماوات والأرض وهو يتحكم في مصير الحضارات من خلال العالم الروحي الذي لا يراه الماديون وبذلك تندثر الحضارة المادية الواحدة تلو الأخرى وان هوداً هو أول من أوحى إليه بأن المادة لا تعمل من ذاتها وانما يتحكم فيها الله من الباطن ولو عرف قومه هذا الأمر لجعلوا القوة لله ولما نهجوا مثلما نهج قوم نوح من قبل.

لا بدّ أن نفرق بين ما أدركه نوح وما أدركه هود وابراهيم ولوط في المنهج ذلك أن نوحاً قد أوحى إليه بمنهج للتربية والغاية من الوجود الانساني في الأرض وحكمة غرق القوم وبقاء الذرية ونجاتهم مع نوح أن القرآن يريد أن يقول لنا ان قدر المطبوع الذي تربّى على نهج معين لا بد أن يصير الى ما صار إليه قوم نوح ولذلك يقول القرآن ان الأمم التي جاءت من تجربة نوح انما هم ذراري تلك الأمة والتربية الروحية التي تنمي في الناس القوة العاقلة للانسان وهي التي تتحكم في مصير الانسان وان ذلك كان بداية الناس مع عالم الله والسماء.

لكن هوداً أدرك بالوحي العقلي ما رآه ابراهيم ولوط رؤيا العين وان سورة «هود» تقول لنا ان هوداً علم من السماء ما أكد وجوده ابراهيم ولوط وان الله يرسل على الحضارة ما يدمر عليها وان الانسان لو أراد الحضارة أو حضارته تنمو وتزدهر فلا بدّ لها أن تكون على منهج الله والروحية ورغم ذلك كذبت عاد ومن جاء بعدهم ولهذا الأمر لقوا من الله ما لقوا من قبلهم — انما يبين القصص القومي الذي ورد في سورة «هود» ان هوداً هو النبي الذي أوحى إليه بأن الماديات لا تتحكم في الحضارة انما يتحكم فيها الروحانيات التي تعمل من باطنها وان الله للماديين بالمرصاد.

يقول القصص في سورة «هود» ان زوجة ابراهيم لم تر الملائكة الذين بشروه بقرب انجابه وان امرأته سخرت من تلك البشارة ولكن الله جعلها حقيقة وأنجب ابراهيم اسحق ومن وراء اسحق يعقوب وعرف ابراهيم من ذلك ان هذا العالم الروحي هو عالم الحقيقة التي لا يدركها العامة من الناس لأنهم يميلون الى المادة التي

ترين على بصيرتهم فلا يتصلون بالسماء ولا يعرجون إليها ولذلك تقول الملائكة للوط وقد حاصره الماديون الذين عشقوا المثلية الجنسية — «لا تفزع فإنهم لن يصلوا إليك لأن الله لهم بالمرصاد وان نجاتك ستكون آية لمن بعدك وستبرهن على أن الله يعلم ما يدور بين الناس وان زوجتك ستهلك مع الهالكين ولو كان الله لا يعلم لنجت مع أهل بيت لوط والقرآن انما يريد أن يقول لنا ان المنهج الروحي ليس خرافة وانما هو كل الحقيقة التي يغفل عنها الماديون.

في العرض الشيّق للقصص في سورة «هود» يقول الماديون لشعيب وقد دعاهم الى الله اننا أحرار في أموالنا نفعل بها ما نشاء وهذا هو ما قاله قارون الطاغية أيضاً

﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ (٨٧). هود.

لا يفهم الطغاة منطق الروح والاخاء الانساني وانما يعبدون شهواتهم وها هم فرعون وملته يكذبون موسى أيضاً لأن المادية تبني أساساً على الأنانية وعبادة النفس وهذا المنهج يجد له صدى عميقاً عند العامة حتى يقول القرآن ان واحداً فقط من الممكن أن يقود أمة بالكامل لتكون تلك الأمة من الهالكين:

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (٩٧).

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ (٩٨).

﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ (٩٩).

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (١٠٠).
هود.

يقول الماديون ان العوامل المادية هي التي تتحكم في قدر الحضارات والتطور والاقتصاد والتكنولوجيا هي عوامل حاسمة في ازدهارها أو في انهيارها لكن القرآن يقول لنا ان العوامل الروحية والأخلاقية هي المسئول عن مصير الحضارات وان

المادة اذا كانت تضع الأساس لأسباب القوة فإن الناموس الالهي هو الذي يلعب الدور النهائي في مصيرها لذلك قال «هود» لقومه اذا كانت القوة التي بين أيديكم لله فإنها ستنمو وتزدهر أما إذا كانت القوة لأنفسكم وطغيانكم فإن الله لها بالمرصاد وستكون النتيجة دماركم كما دمر الله قوم نوح من قبل «ما كان لله نما وازدهر وما كان للشيطان هلك واندثر».

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠). هود.

ما نزلت السيرة الذاتية لهود إلا ليكون منها ما يثبت فؤاد محمد (صلعم) على المنهج الروحي وانها عظة وذكرى للذين آمنوا معه وليتبين لهم أنه الحق من ربهم وما الماديون الذين يحاربون الدعوة إلا ورثة نوح وهود واخوان لوط وسيكون هلاكهم بيد الله:

﴿وَمَا قَتَلْتُمُوهُم وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ...﴾ (الآية)

وان الاسلام لم ينتصر في صدر الدعوة إلّا بالمنهج الروحي الذي مات بموت صاحبه وطلت الفتنة برأسها في سقيفة بني سعد قبل أن يورى التراب ولم تنقض سنوات حتى كان ملك بني أمية يقوم كله على منهج المادية اللعينة وبذلك قامت حضارات مختلفة منها حضارة بني أمية وحضارة بني العباس وحضارة الفاطميين وغيرهم وغيرهم كلما دخلت منهم أمة لعنت أختها وهكذا لم تقم حضارة للاسلام إلا في عهد محمد (صلعم) فقط وان ما يدعون من عودة السبب إلى الاسلام انما يفترون على الاسلام كذباً وبهتاناً وانهيار الأمة اليوم وقبل اليوم هو خير شاهد ولو كانوا على نهج القرآن ورسوله لما تفرقوا في الأرض شيعاً ولظلت الأمة وحدة متماسكة البنيان ولكان لها شأن آخر في التاريخ المعاصر.

من ذا الذي يقول ان الرأسمالية هي ما يتفق مع منهج القرآن؟ ان القرآن يعادي المادية ويجعلها رأس الشيطان وأئمة الرأسمالية يدعون للاسلام ويتقربون الى الله بحجة

الملكية الخاصة ويعتبرونها الرباط المقدس لأن ما يريده الله وما تريده الرأسمالية والحرية التي نراها للانسان في القرآن ليست حرية المادة وانما هي حرية العقل والروح والابداع والقوة والعزة والغلبة ينص عليها القرآن نصّاً آخر لله وحده وان الأموال التي بين يدي طبقة الرأسماليين ليست لهم وانما هي وديعة من الله والله يدعو الى الانفاق وتطهير الناس بالزكاة وكل ذلك لا يعجب الكهانة انما يعجبها أن ما لله لهم وأن ما في جيوب الناس الى جيوبهم والمادة تنغمس في قلوبهم كما ينغمس القلم في الدواة وان القرآن يقول لنا لا تطمئنوا الى أحد بل اجعلوا عقولكم التي وهبها الله لكم هي وسيلتكم الى الله ورسوله لأن الانسان عبد لا يرتوي أبداً من طين الأرض التي جاء منها والخطيئة هي الوصية الأزلية لكل الناس وان ذلك عظمة وعبرة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين.

لقمان والحكمة:

لكي نضع يدنا على منهج الرسل «الم» لا بدّ لنا من تدبر السور القرآنية التي وردت في كتاب «الم» القرآني «اقرأ كتابنا تفسير الكتب القرآنية» و«أسرار الرموز في فواتح السور» لأن هذا الكتاب انما نزل ليشرح لمحمد (صلعم) كيف أصبح هؤلاء الأفراد رسلاً من عند الله ولهذا نجد في نهاية كل سورة ما يشير الى أن هذه السور نزلت من أجل التربية الربانية التي يريدها القرآن لمحمد (صلعم) وبذلك يضع القرآن أيدينا على المنهج.

قابلت أحد الناس ممن يعملون في الحقل الديني وطرحت عليه المنهج فرد قائلاً «ولماذا تلك السور بالذات» وما علم ان القرآن علم تخصيص وتفصيل لكل شيء وهو انما يعادي التعميم لأن التعميم مدخل واسع للمقولات وقد رأينا ان القرآن قد نزل على نهج يغاير النهج الذي نزلت به التوراة ونزل به الانجيل حيث جعل القرآن المحكم في صدر السور لبيان الموضوع والمتشابه فيما يأتي بعد ذلك من القصص والأمثال والتحليل والنقد وان ذلك لو درسه هذا العالم لعرف الفارق بين تلك

السور والسور التي نزلت في كتاب «الم» وهو الكتاب الذي ناقشناه في سور «البقرة» و«آل عمران» واستخلصنا منه المسألة التي أرقت أهل الكتاب ومقولاتهم.

هذا علم واسع كان لا بدّ للمسلمين أن يدخلوا بابه وأن يضعوا الموضوعات على رؤوس السور لأن القرآن عندما سمبت أسماء السور فإنها سميت بأسماء الحوادث الظاهرية وبقي العلم الباطني للموضوع حبيس المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والقصص والأمثال وهذه حكمة بالغة حيث تتطور الموضوعات على مرّ الزمن وتأخذ أسماء مختلفة ولا يناقض القرآن للتصدر منهجاً ولهذا ظل الباب مفتوحاً لكل فكر في أن ينهل من موضوع القرآن ما يخصه ولم يفرط القرآن في شيء.

في المنهج قدم نوح موضوع الغاية من الوجود الانساني في الأرض والتطور الذي يجب أن يسير الانسان في ركابه حتى يصعد الى السماء فيلقى ربه ثم قدم ابراهيم موضوع الاجتماع وان الله أراد لهذا الاجتماع أن ينبني أساساً على السلام والاخاء والعدل وان بيت الله الذي بناه ابراهيم آية للناس ليعرفوا ماذا يريد الله منهم ثم جاء هود وبين لأول مرة مشكلة المجتمعات كلها وهي صراع الناس على القوة والانسان عبد للطغيان يتعشقه في كل صورة من المادة تتبدى له فيها مثل المال والبنين وغيرها والقرآن يقول ان الانسان متى ما أصبح الطغيان والقوة بين يديه استغنى به عن ربه وعن كل شيء ﴿كَلَّاً إِنَّ الإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰ...﴾ (الآية).

وهكذا عرف هود المشكلة الأساسية بين الناس ولذلك دعاهم إلى جعل القوة لله ولكنهم لم يصدقوه وكانت النتيجة من بعد تدمير الحضارات المادية المتاقبة بعده. ثم نزلت لقمان وهي مكية أيضاً لتبع محمد (صلعم) على طريق الحكمة فما هي الحكمة في المنهج؟

لقد رأى القرآن بعينيه أنه ما من رسالة نزلت في الناس إلاّ وكذبوا بها وهلاك القوميات وانحراف الأمميات خير شاهد على هذا الأمر وأخذ الله الناس بذنوبهم بين يدي القرآن وهذه مشكلة آن الأوان أن يكون لها حل على يدي القرآن ورسالة محمد

(صلعم) لأنها ستكون رسالة عالمية ومن النقص أن تستمر تلك المشكلة في حياة الناس.

لذلك قدم القرآن الحل النهائي لتلك المشكلة ووضع الحكمة التي يجب أن يسير المجتمع على نهجها وما دام الكبار لم تنفع فيهم رسالة بسبب الطمع وعبادة الآباء والتراث المادي وانحراف الحضارات عن نهج الله فإن القرآن يوجه العناية والرعاية والتربية الروحية الى الأبناء منذ الصغر ويدعو الأبناء بدلاً من الآباء وبذلك تصل المشكلة الى الحل النهائي.

لذلك نرى في سورة «لقمان» ان القرآن يقول للأبناء لو دعوكم الى الشرك بالله في المنهج فلا تطيعوهم وان القرآن قد أدرك صراع الأجيال وفعل الوالدين في تهويد أو تنصير أو اسلام الأبناء ولذلك يقول ان الانسان يولد على الفطرة ثم يدخل الشرك الى حياته عن طريق الآباء الذين يرثون الطبع عن الأجداد وهذه المشكلة هي التي كانت عقبة في ايمان الأقوام بالله وبالرسالة السماوية ولذلك تقول الآيات في السورة ان الآباء لا يمكن أن يكونوا بديلاً عن الله والفطرة :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٢٠).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (٢١).

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٢٢).

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ

بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (١٠).

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (١١).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ (٣٠).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ ءَايَٰتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١). لقمان

هذا هو الله والطبيعة وما تحويه من الآيات وما يجب أن يكون مصدراً لعلوم الأمة وعبادة الآباء والتراث لا تفيد ولقمان قد أوحى إليه الله أن يقدم لابنه المنهج الروحي وهو ما زال صغيراً ثم يتركه لله والفطرة ولو تبيّنا المناسبة التاريخية التي نزلت فيها سورة «لقمان» لعرفنا ان كبار قريش وسادتها المطبوعين بما ورث الآباء من الوثنية كانوا حجر عثرة في سبيل تقبل الناس لمنهج الله ولا غرو أن آمن بمحمد (صلعم) ومنهجه الشباب من الناس وكلهم قد كانوا في مرحلة لم يتمكن الطبع منهم ولم يرن على قلوبهم ما ران على كبارهم أمثال عتبة وأبي جهل وغيرهم.

في رسالة موسى يقول الله له لا تحزن على بني اسرائيل لأنهم سيتيهون في الأرض أربعين عاماً حتى ينقرض الجيل المطبوع بالمادية ثم يأتي الشباب ليقوم بالمهمة وتحقيق الحلم.

ابراهيم يصطدم بأبيه وقومه والله يقول لنوح ان داء الطبع والتقادم لو تمكن من

قوم فإن الأب لن يلد إلا فاجراً كفاراً وهذه هي المشكلة التي تعرض لها القرآن في سورة «لقمان» بالحل المناسب وان التربية في الأمة لا بد أن تبدأ من الصفر على منهج الله لأن الآباء يورثون الأبناء منهج المادية والشرك.

ان معاملة الوالدين بالحسنى يكفلها القرآن ولكنه لا يكفل لهم التسلط على الأبناء لأن الله هو الولي وهو الذي يشمل الجيل بالرعاية وان القرآن لما يقول ان الله قد خلق من كل زوج كريم انما يوضح لنا ان الله يشمل الكائنات بالرعاية ولا رعاية للآباء والكهانة وما شابه من أوجه التسلط على النشء وتعليمهم المناهج المادية الفاسدة.

أمن افلاس للعلم والفطرة يجعل الآباء من أنفسهم أرباباً؟ أبداً ان علم الله لا ينفد والله واسع عليم وهو لا يعجزه رعاية النشء ولا هواية الجيل:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٧). لقمان

ان الكهانة والآباء والأجداد والتراث وكل ما هو موروث مثقل بالخرافات والإنحراف والمقولات والطبع والعادات والتقاليد هي التي تمثل الأعداء الحقيقية للعقل والحرية التي وهبها الله للانسان بالفطرة.

يشير القرآن الى الفلك وتكنولوجية بناء السفن يقول ان هذا يحدث بنعمة الله ليبين ان الانسان لا يستطيع أن يبلغ مبلغ الابداع والخلق إلا عن طريق المنهج الروحي الذي يكشف عن مقولات الآيات والنواميس والقوانين التي خلقها الله واستنبطتها الطبيعة من حولنا أما ما يدعو إليه الآباء من المادية فهو العدو الأصيل للانسان وان القرآن يقول في هلاك الأمم ان كل أمة دخلت في النار ما سبقتها وان ذلك من فعل الآباء وانهم يفعلون في الانسان فعل القطيع الذي تقوده الغريزة العمياء حتى لا يرى الهوة التي يتردّى فيها.

ان القرآن يضع المنهج العالمي للتربية ويبين أن الجيل لا بد أن يأخذ قدره بين يديه

إلا من بداية روحية أولية يضعه الآباء الروحانيون عليها وهذا هو المنهج الخالص للتربية التي تريد وجه الله والله لا يعجزه تربية الجيل لأنه يرعى الكائنات ويقوم عليها وفترة الحضانة القصيرة التي نراها في الحيوان خير شاهد على هذا الأمر حتى لنرى صغار الطيور تخرج من البيضة ولتوّها تلتقط الغذاء من تحت أقدامها وهذا ما يؤكد لنا ان الله رب العالمين والقائم على رعايته وان الآباء يشاركون الله في مهمته فيخرجون الانسان الذي كرمه ربه إخراجاً مشوهاً لا يرى الله ولا آياته والنتيجة كما رأينا في الأقوام والأمم كفران بنعمة الله واتباع للشيطان.

في نهاية سورة «لقمان» يقول القرآن لو كان الآباء يحملون عن الأبناء شيئاً أمام الله لجاز لهم أن يحلوا محل الله فيهم لكن الأمر بخلاف ذلك والمصير عند الله مصير شخصي ولهذا الأمر سيهلك الأبناء وتسوء عاقبتهم في الحياة الآخرة:

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (٣٣). لقمان.

القرآن عندما يتعرض للوصاية ويهاجم وصاية الآباء على الأبناء يقول للناس انكم لا تستطيعون افساد النظام الألوهي الذي خلقه الله لأن الله هو وحده الذي يعلم ويدبر عالم الأمر ولن يستطيع الناس والآباء أن يفسدوا ما خلق الله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٣٤). لقمان

وهكذا جعل الله من علمه الباطني وقاية ضد شرور الانسان والناس مهما أوتوا من العلم فلن يستطيعوا الوصول الى السنن الباطنية التي تتحكم في مصير الحياة والعلم الحديث يقول لنا ذلك وهو كل يوم يكتشف ان وراء الظاهرة ألف سبب وسبب وكلما تجمع سبب لدى الانسان وجد سبباً يخفيه السبب الأول حتى عجز العلماء في

هذا الأمر وعندئذ لم يجد العلماء بدًا من القول بالسببية وان الظواهر الطبيعية ليست هي حقيقية الأشياء ولا يوجد أشياء بالمرة انما توجد علاقات وأسباب هي التي تقدم لنا الظواهر وكأن العلم يقول لنا ان الله هو الحقيقة وان ما فعله هو الذي يتبدّى لنا ولا نرى الله انما نرى ملكوته وأفعاله ولا بد للانسان أن يسلم لله ويدع الأمر بين يديه وعندئذ سيكون للانسان شأن آخر.

العواطف والغرائز والهوى والخرافات والانحرافات والأساطير والمقولات تصنع للانسان سجناً كبيراً خاصة سجن الآباء والأجداد لذلك يقول القرآن في تعقيب الكافرين :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ إِنَّا عَلَى ءَاثَٰرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ (الآية).

الآباء لا يصحّ أن يكونوا قدوة للأبناء وانما القدوة هي المثل الأعلى وهو دائماً الله سبحانه وتعالى واذا حدث واتخذ الناس آباءهم من دون الله ليكونوا لهم قدوة فإن الانسان يصير مسخاً لأبيه حتى ليقول فيمن يتقادم بهم الأجل

﴿ ومَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الآية).

الحياة عند الله هي الجدة كل الجدة والتطور كل التطور والقديم قديماً لا يصلح والله كل يوم هو في شأن من الخلق والابداع ولذلك يدعو الله الأبناء ليكونوا خلقاً جديداً وصورة مشرقة لروح الله المبدع ولا يعرف المشركون ذلك انما يسكنون في مساكن الذين ظلموا أنفسهم حتى ولو تبينوا انهم أصحاب النار.

لو كان لموسى أب لو كان لمحمد أب لو كان لعيسى أب لما كان للناس ما بين أيديهم من الكتاب وانما تولى الله هؤلاء الرسل وجعلهم تحت عين رعايته الربانية حتى ليقول لموسى وقد غابت عنه تلك المسألة من رعاية الله ﴿ واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ ٤١ / طه». ثم يعدّد في سورة «طه» وغيرها من السور كيف وضع الله موسى تحت رعايته حتى بلغ ما بلغ من الرسالة والكتاب وكلام الله.

هذه المسألة الخطيرة يغفل الناس عنها والآيات تبين لنا ان الرسل والأنبياء خلوص لله والتربية الربانية الحرة بعيداً عن مواريث الآباء والأجداد والعلم اللدني لا تدخل فيه الدراسة لأن الدراسة من عنديات الناس وهو من عند الروح الفطري الذي جاءت منه السماوات والأرض.

ان الماديين لا يعلمون ان الله يخلق الأجيال على الفطرة الروحية ويجيء دور التربية والمجتمعات فيشوه خلق الله ويجعل من الانسان الذي كرسه الله بعطف رعايته خنزيراً أو قرداً ولذلك يقول الله في شأن اليهود الذين عصوا موسى ومنهجه الروحي ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الآية. والمسخ انما يتم على يد الآباء والأجداد الذين تغلبهم المادية دون ما يعوا وتعمل فيهم أمراض العقل دون أن يفطنوا. ثم يظنون أنهم على الحق وما ذلك إلا غروراً يحذر القرآن منه ويقول لهم ان أردتم الفطرة السليمة فدعوا الأبناء لله وحده وقصة «حي بن يقظان» لابن طفيل هي العمل الأدبي الذي كشف به الفيلسوف عن أن الروح الفطري في الانسان لا بد أن تقود الى معرفة الله المعرفة السليمة ولذلك يتمتع أهل الفطرة بالتواضع والمسالمة والطمأنينة والأمن والأخلاق الراقية.

يولد الانسان على الفطرة وأبواه اما يهودانه أو يمجسانه ثم يأتي دور المجتمع بعد ذلك فيجعل منه أمعة يقول انه مع الناس إن أساءوا أسأت وإن أحسنوا أحسنت ومن هذا الباب تهلك الأمم الأمة بعد الأخرى حتى يلعن الجميع أنفسهم أمام الله سبحانه وتعالى.

عظة وتذكرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وما نكتبه الآن شهيد على ما نتبناه ونعلمه من أمر الله فإن قال المبطلون هذا من عند الشيطان فالله على ما نقول وكيل.

يوسف وعلم النفس:

ليس غريباً أن نزول سورة «يوسف» بعد سورة «هود» حيث بينت سورة «هود» أن فرداً واحداً من الطور الأيمن أن يوحي له الله بفضلة تنقذ العالم كله مما

يعاني من المشكلات ولو آمن قوم «هود» بأن القوة لله وحده لما دمر الله على الماديين حضارتهم الواحدة تلو الأخرى وها هو القرآن يأتي بسورة «يوسف» ليبين لنا ان العقل الفطري الباطني للانسان يولد تاماً ناضجاً ولذلك رأى يوسف مستقبله في الرؤية وهو ما يزال صغيراً وتعبير الحلم بسجود الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً وهم اخوته انما يعبر به العقل الباطن عن تطوره ليقول للعقل الظاهر ما عليك إلا أن تجعل مني شيئاً عظيماً وهكذا يكشف الله للناس آياته فيقول لقريش ان الملك الذي آتاه الله ليوسف في مصر سيكون لمحمد (صلعم) مثله أيضاً فماذا تنكرون من الله ولذلك يقول محمد (صلعم) لقريش عندما تمكن منهم «لا أقول لكم إلا كما قال أخي يوسف «اذهبوا فأنتم الطلقاء» — وهذا ما يجعلنا نتدبر علم النفس الفردي وأن نعرف أن الأذكياء يولدون بالفطرة.

لقد فصلت بين يوسف وهود وجئت بلقمان وكان الأحرى أن يأتي يوسف بعد هود ولكن المعلومة جاءت في «لقمان» تهم العامة والتي جاءت في يوسف تهم الخاصة ولذلك كان من الضروري أن نقدم «لقمان» على «يوسف» لهذا الأمر.

يتآمر اخوة «يوسف» عليه لإبعاده عن والده الذي عشق فيه الفرد الروحي الممتاز ويبين القرآن ان المكائد من الناس لن تحول بين أمثال هؤلاء وما خلقهم الله من أجله ولذلك انتصر يوسف في نهاية الأمر وأصبح شخصية عظيمة بين الناس حتى في أرض الغربة.

يعدد القرآن المواقع التي يكشف العقل الباطن ليوسف عن نفسه مثلما فعل في تأويل رؤيته صاحبي السجن ورؤية الملك ليقول القرآن لنا ان الانسان الروحي لديه من القوة الروحية في النفس ما يمكنه من تأويل الأحلام تأويلاً صحيحاً وهو تكشف للناس عن المستقبل العقلي للأحداث وبذلك يقول القرآن انظروا الى الطاقة الروحية للنفس انها شيء عظيم. وخير شاهد على ذلك ما كان من يوسف وتفسير الأحلام والرؤى.

تدعو امرأة العزيز يوسف الى الشهوات وهي طبع غريزي في الانسان لا يملك

له دفعاً لكن القرآن يقول لنا ان أمثال يوسف من الروحانيين لم يخلقوا لمثل ذلك. ولهذا الأمر نجد رب يوسف والذي دائماً في رعايته يسارع لنجدته فيقدم له البرهان ان ذلك ليس الطريق الى الاستعلاء الروحي وانما هو طريق العامة من الناس وهو دائماً طريق الهبوط والانسان الروحي خلق للمعالي السماوية والأخلاق الراقية ولولا برهان رب يوسف لوقع يوسف في أسر الشهوات ولأصبح عبداً لتلك المرأة.

كثير من الذين تصدوا لتفسير القرآن لم يعلموا حكمة توريد قصة يوسف وأخيه وحادثة السرقة التي دبرها يوسف بغرض ابقاء أخيه بجواره والقرآن يقول ان يوسف دبر تلك المكيدة لهذا الغرض وانها فشلت حيث اكتشف الملك عنصر الشك وهو ان صاحب الشيء المسروق لا يخرجه بنفسه من السارق وان ذلك كان في عرف الملك يبطل اتهامه بالسرقة ولذلك يقول القرآن ان في العقل الظاهر للانسان سنجد في الناس انه فوق كل ذي علم عليم وان الملك كان أعلم من يوسف في مثل تلك الأمور ولهذا كشف مكيدة يوسف وان هذا الأمر يقدمه القرآن ليقول لنا انظروا واعتبروا ان يوسف عندما اعتمد على نفسه واستعمل عقله الظاهر فإنه أخفق ولم يتمكن من احكام الأمر بعكس ما آتاه الله من العلم اللدني الذي يأتيه من فطرته الباطنية وهذا هو الفارق بين الذكاء الفطري والذكاء المكتسب بالخبرة وان الأول ينبني على الوحي والثاني ينبني على الأسباب وفرق ضخم بين هذا وذاك وان القرآن يلفت نظر قريس ان محمد (صلعم) لو كان ذكاؤه مكتسباً لما أحكم القرآن بين يديه ولكان به من الثغرات ما ينفذ الناس ومقولاتهم لكن الوحي الباطني الذي يأتيه هو من نفس ناموس يوسف وهود وغيرهم.

انظر لو صدق الناس بالروحانيين والقوة العظيمة العاقلة التي يتمتعون بها فرد واحد يصنع أمة وملايين من الماديين يرسفون في أغلال الشهوات والحيوانية ولا يستطيعون أن ينفذوا الى عالم السماء والرقي الروحي الذي كتبه الله في ملكوته للانسان حتى ليقول القرآن في موضع أن الله يعجب كيف يتغلب الشيطان والمادة على الانسان وقد خلقه بيده.

لو كان الناس يدركون القيم التي سيصيرون إليها في المذهب الروحي لعرفوا أن القرآن عندما يقدّم لنا الحياة الآخرة وما فيها من اللذات والجنان المليئة بكل ألوان المتع الجنسية وغير الجنسية لعرفوا أن الله ليس ضد المادية من حيث هي وجود ممتع وانما هو ضد المادية لأنها تجلب الصراع بين الناس وتحول الغاية من الوجود المادي من المتع الى العذاب والألم. ولهذا يقول القرآن ان المتع المادية التي شابها الألم في الحياة الدنيا ستكون خالصة للروحانيين يوم القيامة وان القرآن انما يريد أن يبين لنا مسئولية الناس في تشكيل الحياة التي سيصيرون إليها وان الدنيا ما هي إلا مزرعة للآخرة والدعوة الى المنهج الروحي والسلام في الأرض يجعل من مستقبل الحياة الآخرة مستقبلاً مشرقاً والانسان في مواجهة الانسان هو المشكلة الاجتماعية التي تشكل الماديات فإما نعيم وإما جحيم وهذا ما يحذرنا القرآن منه.

يقول التاريخ ان يوسف قد نال تلك المرأة مرة أخرى بالطرق المشروعة ليبين لنا ان المنهج الروحي سيحقق ما يحققه المنهج المادي وانما الفارق الوحيد هو الأسلوب الذي ستتم به الأحداث وقد يكون هناك من الأساليب ما يعكس النتائج ولو قارف يوسف جريمة الزنا لقلبت النتائج رأساً على عقب ولما كان يوسف ومستقبله مثلما قال القرآن وهذا هو ما يدعو إليه المنهج ويبين أثره بين الناس.

لا يقف القرآن ضد اشباع الغرائز وانما يقف عندما يؤدي الاشباع الى الصدام بين الناس ولذلك الأمر يقول القرآن ان الطبقات بين الأغنياء والفقراء هي التي تفسد المصير الانساني حتى قال في غير موضع ان الكفر بالله لا يأتي إلا من الأغنياء وضرب مثلاً لذلك في سورة «الكهف» بين الذي جعل له جنتين محفوفتين بالنخيل ثم جعل له من البنين ما يمنعه من الناس ويعطيه القوة فكانت النتيجة كفره بالله والقيم الروحية والسلام الاجتماعي.

قد يعترض البعض فيقول ما دام الحديث هنا عن علم النفس الفردي والأذكياء بالفطرة فلماذا تقحم علم الاجتماع في هذا الموضع ولو عرف أن الموضوع هو موضوع علم الاجتماع وصياغة ما يكون عليه المجتمع والاهتمام بالمنهج الروحي وهي سواء كان

على مستوى الفرد أو مستوى الجماعة لو عرف ذلك لأمن أن الله انما يريد للناس السعادة في الدارين وأن يتمتعوا بما خلقه الله من المتع المادية وهو يقول من حرم ذاتية الله التي أخرج لعباده بشرط أن تكون من الطيبات من الرزق وان القرآن لا يمكن أن يخلط بين دور المادة في حياة الفرد ودورها في حياة المجتمع وهي تقع في المبدأ القائل إن أصل الأشياء الإباحة ما لم تقع في تحريم أو تجريم وهو لا يحدث إلا للمصلحة العامة كما ترى في صراع الطبقات والطوائف.

ان قوانين الوراثة المادية التي اكتشفها العلم الحديث تبين خطورة الأمراض الوراثية وهي تعمل في الناس دون دراية والبقاء يقع أو لا يقع لأن الطبيعة كما تنتخب للبقاء فإنها تنتخب للفناء أيضاً والطيور على أشكالها تقع فيجتمع الضعيف على الضعيف فيكون من ذلك هلاك الاثنين والمادي يقع على المادي فيذهبان الى الجحيم والقرآن عندما يقول ان يوسف كان على ملة آبائه ابراهيم واسحق ويعقوب انما يريد أن ينبهنا الى خطورة الفعل المادي لأحد من الناس سيكون منه ذرية مادية تورث هذا المنهج المادي وتكون النتيجة ان السلوك الانساني البسيط يتحول بالوراثة الى سلوك عام تهلك بسببه أمة من الأمم ومثلما يحدث في الماديات يحدث في الروحانيات والأمر جد خطير يكشفه القرآن ليقول لنا احذروا فإن العواقب وخيمة والمسئولية الانسانية خطيرة للغاية.

سيقول القائمون على العلم المعاصر وهو بالضرورة علم مادي انك تدعو الى الايمان بالوحي وهذه عينيات لا تتفق مع القواعد العلمية السليمة وبعض الناس يرتكب الجرائم الفظيعة باسم الوحي الباطني الذي تتحدث عنه والكلام العامي عند الناس وما يقولونه في الجن وغيره يثبت هذا الأمر والقرآن لم يغفل عن تلك القضية والدجالون كانوا على مرّ الزمن ولذلك يقدم القرآن ما يسميه جملة المفكرين بعقدة ابراهيم وهي تلك العقدة التي ورثها في العقل الطفلي من مسألة تقديم القرابين البشرية التي داهمته في الحلم المفزع الذي كان يأتيه الحين بعد الحين ويرى فيه انه يذبح ولده ولما كان ابراهيم قد بلغ منه الكبر فإن الانسان في مثل تلك السن يبدأ في الرجوع الى مرحلة الفطرة الطفولة ويظهر على سطح الذاكرة ما كان مدفوناً فيها منذ الصغر

واعتقد ابراهيم ان تلك الأحلام تصدر عن الله والوحي ولهذا أخبر ابنه وما نوى عليه والقرآن عندما يقول لنا ان اسماعيل قد صدق أباه في تلك الرؤية انما يريد أن يقول لنا ان الروحانيين يوقنون تماماً من صدق الوحي وان الله لا يكذب ولا يخدع الانسان وهذا الفعل الذي يطلبه الوحي من ابراهيم لا يتفق مع العقل أبداً؟

هذا لكي نعرف ان الشرط الأساسي لنعرف أن ما يقدم لنا من الباطن هو وحي من عند الله لا بد أن يكون هذا الأمر معقولاً ويسير على المنهج العقلي ولا يناقضه ولهذا يقول الله لابراهيم هل صدقت الرؤى إنّا كذلك نجزي المحسنين ولا بد لله ما دام الانسان يحسن النية به أن يتدخل ويصحح ما لا يجوز في العقل وهكذا أشار على ابراهيم أن يذبح أضحية من الحيوان بدلاً من ذبح ولده وهذا هو المعقول الذي يجب أن يتم وبذلك الوحي العقلي صحح الله للناس ماذا يقدمون في القرابين ولا يصح في العقل أن يكون القربان بشراً مثلما كان البابليون يفعلون تقرباً لله وان الله لا يريد أن يقتل الناس أبناءهم.

فالوحي هو بعينه العقل الناضج الواعي ولا يمكن أن يكون هناك تناقض بين الله والعقل حتى يوحي للناس بالخرافات والأساطير وما شابه من أعمال السحرة.

فالوحي يتم التصحيح لأنه العقل الخالص والتناقض الذي يحدث بين الوحي والعقل عند الماديين انما يحدث لأن القصد في المنهج لا يكون لله وانما يكون للشيطان والنفس وهي تسول للانسان ان هذا العقل وحي وما هو كذلك ولو كان وحياً من عند الله لكان له قيمة روحية يستند إليها وغاية عقلية تتفق مع منهج الادراك والوعي.

الله عقل مصوّر «الخالق البارئ المصور» يقدم للانسان ما يوحي به عن طريق الصورة والفعل المتحرك والحلم يقود الانسان في اتجاه الحل الصحيح للمشكلة متى ما كان الانسان على درب الله ولا مكان للشيطان في نفس المؤمنين وهذا وحده ضمانة كافية للانسان الروحي ونحن نعلم ان الله والشيطان لا يجتمعان والانسان المادي هو الذي يتعرض للاختبار والخديعة والله يقول لموسى عندما خاف أن يخدعه الله عند

مواجهته لفرعون اذهب انني معكما اسمع وأرى... الى هذه الدرجة يكون الله مع الانسان الروحي ولا يمكن أن يترك الله المؤمنين للشيطان والمواضع في هذه المسألة من القرآن كثيرة انما نريد أن نرد على الذين يقولون أن الغيبيات ليست منهج العصر ولا تصلح له ونحن نقول لهم ان التجربة التى يقدمها القرآن والتاريخ كفيلة بترجيح هذا المنهج لتحصيل العلم أيضاً :

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ﴾ (٤٠).

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٤١).

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِئَايَـٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (٤٢).

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٤٣).

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (٤٤).

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ (٤٥).

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (٤٦). طه

لا يخدع الله المؤمنين انما يتعرض للخداع هؤلاء الذين وهبوا أنفسهم للمادة والشيطان ولو تدبرنا ما فعله الله مع موسى وغيره من الرسل لوجدنا ان الله وجود روحي يتجلى في نفس الانسان المؤمن وعندئذ تكون الجوارح البشرية هي جوارح الله حتى تكون يد المؤمن هي يد الله التي يبطش بها وكلمة المؤمن هي كلمة الله التي يتحدث بها وان الانسان لو آمن لدخل ملكوت الله من أوسع أبوابه حتى ليقول لعيسى دعهم يصلبونك وسأجعل من الموت الذي يريدونه لك حياة أبدية والقيامة ليس لها معنى في المسيحية إلا قيامة الروح على الجسد والأخلاق والقيم العليا على مفاسد الماديين والذين لا يؤمنون بالله.

ان الانسان مصير روحي وكم من الرسل والأنبياء ما زالوا معنا والتوراة والانجيل والقرآن وكل القيم التي تنادي بالأخلاق والانسانية ما زالت حية بين أيدينا ومحمد

(صلعم) والقرآن خير شاهد على أن الانسان الروحي لا ينال منه الموت إلا بالجسد الطيني وهو من الأرض وإليها يذهب وما على الانسان إلا أن يخلع عن نفسه هذا الثوب الرديء ويتحلى بالثوب الرباني الذي أعده الله له.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨) يوسف.

يقول القرآن في كمال يوسف وجماله والنسوة اللائي قطعن أيديهن وحب امرأة فرعون لموسى وهو طفل في المهد ليبين لنا الاضفاء الروحي على الانسان وأن المؤمن يسبغ الله عليه هيبة الجمال والكمال وما يتمتع به الروحانيون من عذوبة المعشر والأخلاق الفاضلة حتى ليقول الملك ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي...﴾ وكان يوسف في رعاية ربه أجمل من الملك وأكمل من رعاية السلطان والملك ولذلك هامت به النساء والرجال أيضاً والقرآن عندما يقدم لنا تلك الصور انما يضع يدنا على حقيقة الوجود الباطني للانسان الذي يغفل الناس عنه فيشوه الماديون خلقة الانسان الروحية ويخلدون بأنفسهم الى الأرض.

الروح والبيولوجيا:

ما دام المنهج غايته الانسان وقد تبين لنا ان الروح تضفي على المرء جمالاً ربانياً كما حدث مع «يوسف» و«موسى» مثل ذلك كان أخطر مع مريم القديسة التي وهبت نفسها لله وحرمت نفسها من المتع الحسية التي يتمتع بها أمثالها من الشابات وكانت الرهبنة وقتئذ هي الطريق الى الله لكن الأنوثة وما يجب أن تقوم به من غريزة الانجاب ألحت على مريم إلحاحاً جعلها تعاني من الحرمان ولكن الله يعلم بل يسمع ويرى فهل يترك مريم لحالها؟

يقول القرآن ان الله أرسل لمريم روحاً من عنده في ثوب رجل ليتم بينها وبينه ما حرمت نفسها منه ليكون من هذا اللقاء ما ترغبه من الانجاب والخلقة وهكذا ولدت

مريم عيسى بروح الله وقدرته وبين القرآن أن المنهج الروحي الذي يتبناه الانسان ويهب نفسه له لا بدّ أن يحقق له ما يرغبه ويتمناه حتى ولو كانت تلك الرغبة أمراً مستحيلاً وشيئاً خارقاً ولذلك تقول سورة «مريم» ان زكريا كان يعاني من كبر السن ورغم ذلك بشره الله بيحيى وجعل له آية هي ألا يكلم الناس ثلاث ليال سوياً أي كاملة وهي كافية لينجب ويحقق ما يريده.

وهنا نتبين معقولية الوحي وانه الهام عقلي من الله للفرد الروحاني وتلك الحادثة من صوم زكريا عن الكلام مدة الليالي الثلاث لها أصل علمي عميق وهو ان زكريا كان يقوم في الناس كل ليلة فيما يشبه الواعظ وكان ذلك الأمر يتطلب جهداً كبيراً منه يستنفد فيه طاقاته ونحن نعلم اليوم ان الطاقة في الانسان كل لا يتجزأ وهي طاقة واحدة اذا استخدمها الانسان في جانب كان ذلك على حساب باقي النشاط الحيوي وهكذا كان زكريا يستنفد طاقته في الكلام فلا يجد الطاقة الكافية للممارسة الجنسية وهو شيخ طاعن في السن وقد بين العلم أن الانسان عندما يتكلم فانه يستخدم اثنتين وثلاثين عضلة من عضلات الفم والبطن والصدر والمتكلمون هم أدرى الناس بالجهد الكبير الذي يبذله الخطيب في هذا العمل والوحي السماوي وحي لا يناقض العقل والادراك الروحي لا تفوته تلك المسألة وهكذا جعل آية زكريا أن يصمت ثلاث ليال كاملة وبعدها سيجد القدرة وممارسة الطبيعة الجنسية وهذا ما حدث بالفعل وكانت نتيجته انجاب زكريا ليحيى وانجاب مريم لعيسى وان القرآن عندما يشرح لنا كيف تم اللقاء بين مريم وهذا الروح الذكري انما يريد أن يقول لنا أن حلم اليقظة الذي عاشته مريم وعن طريقه جاء عيسى وتحرك البيولوجية والفسيولوجية للروح الخالق في الانسان هو أدوات باطنية عن طريقها يخلق الله ما يريده وما على الانسان إلا الايمان بالله والمنهج الروحي وخير شاهد في عصرنا تحول كثير من الرجال الى نساء وكثير من النساء الى رجال وان ذلك التحول الجسدي سبقه تجربة روحية عميقة يعرف الانسان فيها طاقات نفسه الخلاقة التي تنبعث فيه من روح الله وهكذا تعمل الارادة الروحية حتى على مستوى البيولوجي والفسيولوجي في الجسد المادي.

ما يمارسه الهندوكيون والبوذيون من أعمال اليوجا والارادة الحديدية التي يسيطر بها الانسان على الغرائز والحاجات المادية والتسامي بالنفس ليوجه نظرنا الى هذا الكائن الروحي المدفون في أعماق كل واحد منا وهذا الكائن لا يستحيل عليه شيء أبداً حتى ولو كان هذا الشيء عملاً خارقاً للطبيعة وهو كما رأينا لا يخضع للطبيعة المادية ولا يجري على سننها انما يصنع للانسان إذا آمن به عالماً آخر كله حرية وكله استجابة ولا يوجد في هذا العالم كما رأينا أي نوع من الاحباط والسعادة هي السمة التي تميزه وهي التي تحقق للانسان الغاية من وجوده.

الوجوديون المؤمنون لا يذهبون بعيداً عندما يقولون لنا ان الانسان لم يخلقه الله مثلما خلق باقي الكائنات حيث نجد ان الكائنات الأخرى لم يهبها الله الحرية ولذلك جعلت الغريزة منها قالباً لا يخرج عنه الوجود لكن الانسان بالنسبة لله فإنه اتخذ منه مشروع وجوده وان الانسان ما أن ينمو الى المنهج الروحي ويستخدم الطاقة الروحية لديه حتى يجد الله بين يديه وهكذا ما كرمه الله به دون الخلائق والماديون لا يعرفون أنفسهم حق المعرفة واكتفوا بما لديهم من العلم وما ظهر لهم من أحوال النفس حتى وإن بدت لنا في الثوب الجسدي مثل سائر الحيوان فهي ليست كذلك ولهذا تبدأ معرفة الله بمعرفة أسرار النفس والانسان الروحي يدرك بالممارسة الفارق الهائل بين النفس المادية الأمارة بالسوء والنفس الروحية التي تدعوه دائماً الى التعالي والتسامي ومكارم الأخلاق.

«اعرف نفسك وستعرف الله» والله يقول «مَن عرف نفسه فقد عرفني».

حتى البيولوجيا الجسدية والأعمال الفسيولوجية تخضع لفعل الروح في الانسان وقد رأينا زكريا ومريم يحققان عن طريق الوحي الروحي ما هو معجز وما هو خارق للعادة عند الناس والقرآن يقول لنا هذا الأمر ليبين لنا ان ما يدعو إليه من المنهج هو ما خلق للانسان له والذين يعبدون من دون الله الشهوات المادية والسلوكات الأرضية لن يدخلوا الملكوت الذي كتبه الله لهم وان المصير الذي ينتظر الناس في الحياة الروحية الآخرة انما يتوقف على الايمان بتلك الطاقة الخلاقة في النفس ولذلك

يقول القرآن ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ليوضح ان إنكار الله في الوجود الانساني لن يحقق الوجود نفسه وسيكون من ذلك خروج الانسان من ملكوت الله والشياطين تتربص بالناس في عشق النساء والأولاد والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والانعام والحرث والخيل المسوَّمة ومتاع الحياة الدنيا قليل وكل ذلك سيؤدي بالانسان الى العدم والخروج على مشروع وجوده الذي خلقه الله بيديه وكرمه على كافة خلقه لما أودع فيه من قوة الخلق والابداع والألوهية.

نعم الألوهية! هل الانسان بانطاقة الروحية مدعوّ الى مصاف الآلهة نعم ان الله لا يريد الألوهية للانسان في العالم المادي لان ذلك يفقد الآخرين بالطغيان وجودهم الروحي والظلم والمظالم التي تقوم بين الناس من جراء طلب الناس للألوهية في الأرض لكن الله جعل الألوهية بالنسبة للانسان في العالم الآخر العالم الروحي لأن أعمال الألوهية عندئذ ستكون في العالم الذاتي لكل واحد منا وسيصنع بنفسه عرش الله والألوهية ولن يكون هناك حاجز بين الله والانسان حتى ليقول القرآن ان الانسان سيرى ربه في تلك الحياة رؤية العين وسيمارس لنفسه ما يمارسه الله من أعمال الارادة الحرة والخلق والابداع ولذلك يشير القرآن الى أعمال الله في الخلق والابداع ويقول ان الذي فعل هذا هو ربكم وهو يدعوكم لتكونوا على شاكلته وهو يقول﴿ **خَلَقْتُ الإِنسَـٰنَ عَلَى صُورَتِي** ﴾ لم يعرف قدر الله في نفسه فقد باء بالخسران المبين.

اذن فوحدة الوجود لا تتحقق في العالم المادي ولكنها تتحقق في العالم الروحي والظواهر التي تحدث على يدي الروحانيين خير شاهد على ذلك الأمر وانما ننكر الوحدة في العالم المادي لأن ذلك سيقود الناس الى الطغيان بالنسب الى الله مثلما قال أهل الكتاب انهم شعب الله المختار وباقي الشعوب لا تنتسب الى الله والسلام في الأرض غاية يسعى إليها الروح لأن السلام سيمكن للانسان من اتمام مشروع وجوده في طمأنينة وأمن والتطور يحتاج الى الاستقرار حتى تنمو الحضارة العقلية وتتم المسيرة الروحية.

من عجيب القرآن وهو يتحدث عن أعمال الروح في سورة «مريم» أن يقدّم لنا تفصيل ما حدث لمريم عند الولادة ويقول ان ولادة عيسى دون أب هو سر عجيب لا يفهمه الناس ولذلك لا تكلمي الناس عن حالتك لأنه لا جدوى من الحديث معهم في هذا الأمر لأنهم ماديون يقيسون حياتهم على الأسباب الظاهرة وما حدث لك لا يجري عليه الناموس الأرضي وانما هو من عالم الخلق والحرية المبدعة التي لا تجري على سنة وانما قال القرآن :

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾

ليبين للناس ان الفعل الروحي هو فعل طبيعي غايته إثراء الحياة وكما تساقط النخلة ما تحمله من رطب لخدمة الحياة كذلك ما كان من مريم وان القرآن يقول لمريم ان الذي تحتك سيكون له شأن كبير بين الناس وسيخدم الحياة أيضاً ولذلك أنطق القرآن عيسى ليقول لوالدته لا تحزني وانما يجب في مثل هذا الموقف أن تسعدي حيث جعلك الله آية لدى ما يحققه المنهج الروحي عنده.

يعادي الماديون المنهج الروحي لأنهم يغتصبون حق الآخرين في الحياة ويمنعون مسيرة الله أن تتم في الأرض ويصدّون عن سبيله ويتخذونها عوجاً وهذا عمل الشيطان الذي جعل يفسد الطبيعة البشرية ويتحدّى الله أن يكون له نصيب في الناس.

الوجود الالهي في الانسان معايشة يومية لذلك يقول القرآن ان الحواس التي يتمتع بها الانسان ليست من الجسد وانما هي من فعل خلق الله في الانسان وان الله يسمع ويرى والذي يسمع ويرى في الانسان ليس المادة التي تجسدت وانما هي الروح التي تتخذ من الجسد أداة ووسيلة ولذلك يدعو ابراهيم أباه وقومه الى عبادة هذا الكائن الرباني في كل نفس ويبين القرآن ان ابراهيم عندما أخلص نفسه لله وهاجر فإن الله وهبه بعد العقم والكبر مثلما حدث مع زكريا ومريم فأنجب اسحق ويعقوب وجعل من كل نبياً على هذا المنهج الروحي أيضاً.

وهنا ينتقل القرآن من الامكان المعجز للروح وصنعه للخوارق الى مسألة الصدق

مع النفس الباطنية الروحية فيبن القرآن أن هذا الصدق هو الذي كفل تحقيق هذه الخوارق وكأن القرآن يقول لنا ان الطبيعة الحقة للانسان والسنة الأولية لوجوده والناموس الذي خلق من أجله أن يكون الانسان ربانياً حتى ليقول للشيء كن فيكون بارادة الله سبحانه وتعالى ولذلك حقق المنهج الرباني الروحي وكل هؤلاء ما أراده وان الارادة التي تنبع من الروح لا يقف في طريقها المستحيل ولذلك يقدم القرآن حادثة زكريا وحادثة مريم وحادثة ابراهيم كشواهد حية على ما يمكن أن يقدمه المنهج الروحي للخلوص والتوجه بالمصير إلى الله:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (٥٠).
مريم

سيقول السفهاء من الناس ان هذا المنهج الذي تدعو إليه منهج الرسل والأنبياء وهذا ليس للناس طاقة به ولكن القرآن يقدّم لنا هذا المنهج ليقول لنا ان عالم السماء مفتوح على مصراعيه فقط يتوقف الأمر على ارادة الانسان وهذا الانسان لا يجب أن يكون بالضرورة نبياً ولا رسولاً والقرآن نفسه يقول لمحمد (صلعم) انه قصّ عليه قصص بعض الأنبياء والرسل ولكنه لم يقدم له جميع الأنبياء والرسل الذين سبقوه ومعنى ذلك ان الانسان أمام الله ذرية بعضها من بعض ولا فرق بين نبي وعامي إلا بالتقوى والعلم الروحي ولقمان يقدمه القرآن وهو من عامة الناس ويقول فيه انه رسول من عند الله أصاب من الله الحكمة والمعرفة الصحيحة والناس على الكافة مدعوون الى مائدة الله كما قال عيسى بن مريم.

في سورة «مريم» بعد أن قدم القرآن ما فعل الروح مع زكريا ومريم وابراهيم من المعجزات الحسية الخارقة قدم معجزة عقلية أخرى مجالها علم الاجتماع وها هو موسى ينال من الله ما لم ينله غيره اذ قربه الله إليه حتى ناجاه وجهاً لوجه ومناداة الله لموسى من جانب الطور الروحي الأيمن خير شاهد على وجود الله وجوداً يقينياً ولو كان موسى دجالاً كما يفعل الماديون لما كان بين يديه التوراة ولما استطاع أن يقدم للناس تلك الرسالة السماوية التي أنقذت بني اسرائيل وجعلت منهم أمة.

هؤلاء الناس الذين أنعم الله عليهم بالاتصال الروحي فكان منهم الصادق والصديق والخالص والاخليص خير قدوة للناس إن أرادوا وجه الله وعملوا من أجله :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (٥٨). مريم

قضية الايمان بالروح الخالق فينا قضية وجودية خطيرة فإما أن تكون أو لا تكون والله يشرح في القرآن ويبين ويفصل الآيات لعلنا نعرف الطريق إليه قبل أن يفوتنا الأجل ويذهب بنا المصير.

لو رأينا الفارق بين الايمان والكفر لعرفنا كيف رأى الروحانيون في غزوة بدر ملائكة الله تحارب بين صفوفهم أضعافاً مضاعفة والحسنة بعشرة أمثالها والرجل المؤمن بعشرة من الملائكة وهذا هو عطاء الله للانسان الروحي الذي دخل الملكوت ولن يدخل الانسان هذا الملكوت حتى يجعل الماديات من خلفه ومقولة انه لا يدخل الجنة غني مقولة تكاد تكون صادقة واللعنة على الشياطين ومن يعبدون الشهوات في الأموال والنساء وغيرها وهم بالمنهج المادي يتربصون بالناس وهم غافلون :

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ (٧٧). مريم

لا يفكر المادي إلا في متاع الدنيا وهو عن الآخرة وما أعده الله لعباده المؤمنين غافل ، كم من موضع في القرآن يناقش فيه المسألة المادية ويقدم المال والبنين ويقول فيهما انهما ليسا إلا زينة لتلك الحياة الدنيوية ورغم ذلك يعبد الناس المال والبنين حتى ليقول المادي منهم ان الله يشاركهم في هذا الأمر ومن ثم يجعل الكهنة لله نصيباً مما بين أيدي الناس من تلك الأدوات وهذا افتراء على الله ما بعده افتراء والله بريء من تلك الخرافات والمعتقدات الزائفة لأن الله كما بين القرآن قيمة روحية ليس لها

مأرب في تلك الأشياء وانما يجدف على الله من تشبعت نفسه بالمادية اللعينة التي لا ترى في الوجود إلا المادة والشهوات.

لا أريد أن أكون واعظاً فهذا شأن الخطابيين وانما أريد أن أقول للناس انه لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله أحب إليه من نفسه وجنة الله أقرب الى الناس من شراك نعالهم ورحمة الله رهن اشارتهم.

الفصل الثاني
يونس والآية

بين المنهج ما جاءت به الرسل وتكذيب الأقوام لهذا المنهج رغم ما حققه هذا المنهج لفرديات من الناس خصهم الله بالايمان وكان منهم قدوة لمن يريد أن يكون مع الله ولكن التاريخ يقول لنا ان استجابة بعض الناس للمنهج كان يقابله تكذيب جملة الناس به لذلك هلكت القوميات والأمم الواحدة تلو الأخرى وقد يقع في العقل أن نجاح بعض الناس وفوزهم بالسعادة لا يعتبر منهجاً يمكن تعميمه بين الناس لذلك يقدم القرآن ما حدث مع يونس وقومه وانهم لما آمنوا لم يلحق بهم الدمار الذي لحق بمن قبلهم من الأمم وهذا خير شاهد على صلاحية المنهج لبناء الأمم وانه الحق من الله فيما يخص المجتمعات ولهذا الأمر تقدم سورة «يونس» نجاة نوح ومن معه في الفلك ثم انقراض القوم الكافرين وبقاء ذرية من حمل الله مع نوح. وهذا له دلالة صدق المنهج فلو كان نوح ومن معه قد نجوا بالصدفة لحدث لذريته انقطاع ولكنهم هم وحدهم الذين استمرت بهم الحياة وعمروا الأرض بعد ذلك.

والقرآن يقدم لنا تاريخ ذرية نوح في مثل هذا الموضع ليقول لنا ان المنهج الروحي لو كان مفتقراً للصدق ما استمرت تلك الذرية ولما جعل الله منها خلائف الأرض ولحدث لها ما حدث للذين كذبوا وهذه المسألة التي يثيرها القرآن انما جاءت لأن الكافرين قالوا لمحمد (صلعم) وما هو الدليل على أن هذا المنهج وما تدعو إليه هو الحق من الله؟

يقدم القرآن لإثبات ذلك عدة براهين فيقول انظروا الى ما أدعوكم إليه من أعمال روح الله في خلق السماوات والأرض وعمارتها وان ذلك ما جاء إلا من أعمال الروح التي أدعوكم إليه :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣١).

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (٣٢).

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (٣٤).

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (٣٥).

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦).

﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٣٧). يونس

هذه هي مسألة الحق التي تقدمها سورة «يونس» اذ يقول الكافرون ما هو البرهان على أن القرآن والمنهج الروحي على الحق فيقول لهم انظروا في الطبيعة واذا سلمتم بأن الله هو الذي يدبر أحوالها فتكون الحياة من هذا التدبير فإذا سلمتم بذلك فإن القرآن يدعو الى الفطرة في حياة الانسان أيضاً وهي منهج روحي رباني جاء من رب العالمين والقرآن لا يمكن أن يفتري على الله الكذب لأنه يدعو الناس الى نفس

المبادئ الطبيعية التي تسلمون بصدقها وهذا هو محمد (صلعم) وقد اختار الفطرة والمنهج الروحي الذي نجا به نوح وذريته من قبل فماذا ينكر الكافرون منه إلا أن يكونوا مطبوعين على ما كان يعبد آباؤهم من قبل :

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ (٧٨). يونس

هذا للفراعنيين لموسى وهارون والمسألة من على الحق هل هم أصحاب المنهج المادي أم أصحاب المنهج الروحي ؟

المنهج الروحي له قدم صدق في الوجود من حولنا وآيات الله لم تتحقق إلا من أعمال الروح وما يدعو إليه الماديون لا يضيف الى الحياة وانما يدمرها والتاريخ يشهد بهذا الأمر والقرآن ومنهجه يدعوان الى هذا السبيل :

﴿ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ (٥٣). يونس

المنهج المادي يدعو الى دار الحروب والدمار والتفرقة بين بني الانسان ويجعل من الناس طبقات وطوائف ومللاً ونحلاً وقبائل وفتناً وكل ذلك لا يريده الله من المنهج أن يدعو إلى دار السلام :

﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (٢٥). يونس

وتقول قصة موسى ان فرعون لكي ينصر قضيته المادية فانه استعان بكل عالم ساحر في هذا المجال ورغم ذلك فإن موسى انتصر عليهم وأبطل الله سحر السحرة وأحق الحق ولكن الذين آمنوا من قومه رغم انتصاره قلة قليلة هي ذرية شباب من قومه :

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ (٨٢).

﴿ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (٨٣) يونس

ثم تفصل الآيات كيف جعل موسى من بيوت الذين آمنوا قبلة للناس ليجتمعوا في المنهج ويكون منهم قوة وان ذلك كان من تدبير الله ووحيه ليوضح لنا ان خروج بني اسرائيل من مصر وغرق الفرعون ومن كان معه هو خير شاهد على أن ما يدعو إليه القرآن من هذا المنهج هو الحق وسينصره الله وسيكون من ذلك أمة روحية عظيمة :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (٩٤).

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٩٥). يونس

القرآن لا يقدم القصص إلا في موضع التحليل وقراءة التاريخ وهو يقول لمحمد (صلعم) ان المنهج الروحي الذي أنت عليه هو نفس المنهج الذي نصر الله به موسى وبني اسرائيل من قبل وما التفصيل في القصص إلا ليوضح لمحمد (صلعم) ان عناية الله وتدبيره هما اللذان كانا سبباً في انتصار موسى ومن معه ولو كان المنهج الذي يدعو الى الروحانية كاذباً ما حدث ذلك لبني اسرائيل وموسى والتاريخ يشهد ان قوم يونس قد نجوا من عذاب الله لأنهم آمنوا بما جاءهم على يدي يونس وان الله قد جعل لهذا المنهج قدم الصدق أو ما نسميه اليوم «الماصدق» وهو كل ما يصدق مع المنهج وان تلك الدلالات تبين ان المنهج صادق وان الله لا يخدع الناس بل يقودهم الى الحق الذي يختلفون فيه :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٩٨). يونس

نزلت سورة «هود» أولاً ثم جاءت سورة «يونس» وبينهما من العلاقات ما يستدق على الأفهام وقد رأينا أن هوداً بيّن للناس ان القوة المادية التي بين يديهم هي التي ستهلك الحضارات ثم جاء التاريخ وصدقت النبوة وهلك الأقوام القوم بعد القوم ثم جاءت رسالة يونس وكما بيّن هود فعل المادية كذلك بيّن يونس فعل الروحية في المجتمعات وقال للناس إن كان هناك جند لله يأخذون الأقوام بماديتهم فيهلكون فهنالك جند لله ينصرون الروحانيين أيضاً ولهذا كشف الله عنهم عذاب الدنيا ومتعهم الى حين.

ومعنى ذلك ان الذين آمنوا لن يعدموا نصرة الله لهم وما عليهم إلا الايمان والعمل ولذلك يقول القرآن في مثل هذا الموضع لموسى اذهب الى فرعون ولا تخشَ وسأجعل من يؤمن بك من قوم فرعون أنفسهم وهذا ما تحقق وقام رجل من آل فرعون يكتم ايمانه قام هذا المؤمن يدافع عن موسى وقضيته العادل ويقول الفرعون ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً يَقُولُ اللهُ رَبِّي ﴾ (الآية). ومثل ذلك ايمان امرأة فرعون وهذا معناه ان الله رغم كيد الكافرين يدافع عن الذين آمنوا ويستجيب للحق ولا يمكن أن ينصر الباطل ولو شاء المجرمون.

ان ايمان قوم يونس كلهم ونجاتهم سابقة تستحق الدراسة لأنها تجربة أولية كتب لها النجاح وهي ردّ على الذين قالوا لمحمد (صلعم) ان المؤمنين بالمنهج الذي تدعو إليه قلة في التاريخ وايمان بعض الناس ليس معناه صدق المنهج ولذلك جعل القرآن من قوم يونس دلالة لها وزنها في التاريخ الديني وآية كبرى لمن أراد أن يدبر أو أراد شكوراً:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (١٠٨).
يونس

أصحاب الحجر وتكذيبهم للمرسلين:

لا يترك القرآن جزئية من المنهج حتى يكشف عنها ويبينها للناس لعلهم يؤمنون فيقول ان أعداء المنهج الروحي هم هؤلاء الذين غلبهم الطبع على انسانيتهم فهم لا يصدقون ان وراء هذا العالم المادي عالماً آخر مجاله الحق وهو مسألة روحية ولذلك يطلبون من محمد (صلعم) أن يروا الملائكة المختصين بهذا العالم وما علموا ان عالم الحقيقة لا يرى وانما يدرك بالعقل فقط ولذلك لا يمكن أن يرى هؤلاء إلا من كانت بصيرتهم خالصة لله والشهوات المادية تقتل في النفس هذا الامكان الروحي وهذه المسألة كانت سبباً في تكذيب الأقوام والأمم بالمنهج:

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ (٦).

﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ (٧).

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ (٨).

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ (٩).

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (١٠).

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ (١١).

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ (١٢).

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (١٣).

﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ (١٤).

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَـٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ (١٥).

الحجر

هؤلاء المطبوعون على جبلة المحسوس لا يمكن أن يصدقوا بوجودهم هذا العالم الخفي وأصحاب الحجر في كل رسالة لم يدركوا قدرة الخلق عند الله بحيث لا يعجزه

وجود عالم الملائكة والغيبيات حتى جعل القرآن من سمة المؤمن أن يصدق بوجود عالم الغيب ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (٢ / البقرة) متى صدق بهذا الوجود فإنه يدخل في زمرة العقلانيين وأصحاب الادراك ولا يقف بطاقة النفس على ما بين يديه من عالم الحس وهو لذلك يكون في موقف يسمح له بهداية الله وتوفيقه والآيات كما هي بين أيدينا تقول ان المطبوع حتى لو رأى هذا العالم فإنه يحيل الأمر الى السحر ولا يصدقه لأنه يعيش في عالم كله مادة وكله دنيوي لا يرى فيه شيء من أعمال الروح والتجريد والحوادث تقف عنده المكانية الضيقة ولا يستطيع أن يقوم بما يقوم به العقلاء و هذا الأمر في جبلة الانسان يحدثنا القرآن عنها في تلك السورة فيورد قصة خلق الانسان من صلصال ويقول لنا ان الأبالسة الذين يتربصون بنفس الانسان ونشأته من الطين جعلت هؤلاء الماديين يستجيبون بسهولة للغرائز والشهوات ويكون من ذلك عدم إمكانهم فعل التسامي أو التعالي المطلوب لبلوغ هذا العالم الروحي الذي يحدثنا القرآن عنه :

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٣٠).

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٣١).

﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٣٣).

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ (٣٤).

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٣٥).

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٣٦).

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٣٧).

﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ (٣٨).

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٩).

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤٠). الحجر

فالخلوص من هذه الجبلة الأولية التي تقود وتزين للانسان أفضلية عالم المادة على عالم الروح مغروسة في باطن النفس البشرية والجانب الملائكي في الانسان ضعيف أمام تلك القوة الظاهره والمخلصون قلة قليلة هي التي استطاعت أن تتحرك وأن تدرك أن خلف الطبيعة قوة روحية خلاقة هي ما يدعو القرآن لها ولذلك يقول القرآن في نفس السورة ان التدبير الذي تراه في الفعل الطبيعي ينبي القومي ويقود العقل الى أن هناك قوة روحية تتحكم في الظواهر وهذا دليل كافٍ للايمان بعالم الغيب الذي لا نراه وانا نعقله.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٦).

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (١٧).

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٨).

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (١٩).

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ (٢٠).

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١).

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (٢٢).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢٣). الحجر

هذه هي قضية الكفر بالله والعالم الروحي وهي قضية كما نرى تخضع للفلسفة والتحليل حتى ليكشف القرآن في قصة الخلق وهي قصة التحليل النفسي للعوامل التي تتحكم في السلوك الانساني فيكون من الانسان شيطاناً وابليساً أو يكون نبياً ورسولاً وهذه العوامل تلفت النظر إلا ان الانسان الذي يبدو لنا كلاً واحداً وجسداً محصوراً في الزمان والمكان ليس كما يبدو لنا وانما هو كان مركباً حتى ليقول القرآن ان الله عندما خلق الانسان فانه قدم خلقته المادية على خلقته الروحية وكانت الأرض في الخلقة أسبق من السماء وهذا ما يدعو الناس الى الخلود للأرض والمادة وما علموا ان الملكوت السماوي هو مصيرهم المنتظر :

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ (٢٤).
﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥). الحجر

لو كان القرآن منهجا ظنياً لما قدم في كل موقف يناقش فيه وجود العالم الروحي ما نراه من جملة الآيات الطبيعية حتى تكون الشيء المحسوس للناس ويدعوهم الى اعمال الفكر والتدبر لمثل الآيات اذن فهو لا يقدم مقولات وانما يقدم البراهين التي تقود العقل الى الحقيقة.

في كل مشكلة أثارها الكافرون والماديون يورد القرآن قصة الخلق ويحلّل التركيبة النفسية للانسان ليقول للناس ان ما يحدث من الماديين وانكارهم للطاقة الروحية في كياناتهم وراءه سبب خفي مدفون في أعماق الخلقة والتنازع الذي يحدث في نفس الانسان بين فعل الخير وفعل الشر والاختيار الحر الذي تمتع به الانسان يؤكد وجود هذا التضاد في الخلقة النفسية بين الروح والمادة.

يتنازع الانسان عالمان والارادة الانسانية لها دور كبير في حسم الأمر ولذلك لا ينجو ضعاف النفوس من عمل الأبالسة والشياطين وهم يزينون للناس في الشهوات المادية التي يتحدث القرآن عنها ويقول ان العدو الأول للمصير الانساني أن يسلم الناس زمام قيادتهم للأبالسة والشياطين.

في نفس السورة يقدم القرآن ضيف ابراهيم وهم ملائكة مرسلون الى قوم لوط ويقول القرآن ان ابراهيم أخذ يحاور الملائكة وهو قانط من رحمة الله حيث بشروه بقرب انجابه ومثل ذلك فعل لوط وأخذ يجادلهم في نجاته والقرآن يفعل ذلك ليقول لنا ان ما حدث بعد ذلك قد أثبت ما لا يدع مجالاً للشك في وجود هذا العالم الروحاني حيث أنجب ابراهيم ونجا لوط من القوم واخبار الملائكة للوط ان امرأته ستهلك مع من سيهلك من قومه وحدوث ذلك ليؤكد ان الأمر مدبر تماماً ولو كان للصدفة لنجت مع لوط وانما يبين القرآن ان الله والروح يعلم الجزئيات وما يحدث في الحياة اليومية بين الناس وهو لذلك قدر هلاك تلك المرأة لأنها كانت من الغابرين الذين ينكصون بالفعل الانساني الى الجبلة الأولى والمثلية ما هي إلا سلوك جنس نكوص يؤدي الى مرحلة حيوانية انقرضت.

ان الذين لا يفهمون منهج التطور والتحليل النفسي لا يفهمون ما يرمي إليه القرآن وهو يريد أن نعرف ان الصراع بين المادية والروحية هو صراع بين الأطوار والانسانية في العقل تخضع لهذا التطور ومسئولية الانسان وارادته عوامل حاسمة في المصير الانساني كله.

الرعد وغاية المنهج :

يقلق القرآن قلقاً بالغاً على مصير الانسان فيقول في سورة «الرعد» لو تدبر الماديون آيات الله من حولهم لعرفوا أن للانسان حياة أخرى تنتظره بمجرد الموت وهذه الحياة لا تخضع للنواميس المادية ولا للقيم التي يحياها الناس في الأرض وكما يخلق التطور من المادة الميتة حياة النبات فالحيوان كذلك سيخلق التطور من الأجساد أرواحاً لها عالم آخر تحياه في الآخرة لكن القرآن كعادته لا يقدم مسألة الوجود الأخرى كمقولة وانما يقدمه من خلال برهان عيسى هو الاستقراء وما يكشف عنه من التجريدات العقلية فيقول لو نظرتم الى جملة المخلوقات لوجدتم أن كل شيء جاء من الزوجية والأضداد فإذا انكشف للناس من الكائنات هذا

الناموس يصبح الوجود الأخروي الروحي وجوداً يقيناً وتصبح الأرواح في مقابلة الأجساد والحياة الآخرة في مواجهة الحياة الدنيا:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (٢).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣).

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤). الرعد

أي لو تفكر الانسان في الزوجية والأضداد لعرف أن هناك حياة أخرى للانسان ولا بد أن يلقى فيها ربه الروحي الذي يدعوه إلى السماء ولو نظر في اختلاف الثمرات وأنواعها وتفضيل الناس لأنواع على أنواع لفضل الماديون الحياة الروحية كذلك ولكنهم لا يعرفون لماذا خلقت الأشياء مختلفة بالنسبة للانسان وإن الاختيار مسئولية ولو كانوا يعقلون لفضلوا حياة الروح على حياة المادة ولعرفوا أن الله لم يخلق الانسان لهذه الحياة الدنيئة:

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (٥). الرعد

ثم يقول القرآن إن أنكر الناس الرسالات السماوية فإنهم لم يتدبروا حكمة الرعد الذي يسبق الصاعقة والله جعل منه تحذيراً للناس كي لا يهلكوا بالكهرباء فإذا كان

الله قد جعل تلك المظاهر انذاراً لكل عاقل فإنه أيضاً قد جعل الرسالات السماوية انذاراً للناس من حياة الآخرة التي سيكون فيها الحساب شديداً والعقاب أليماً ولا مخرج للناس عندئذ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ (١٢).

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ (١٣). الرعد

ان أحوال الله مع خلقه أحوال شديدة التعقيد ولا يستطيع الانسان أن يعرف مراداً لله إلا اذا خلصت روحه من الماديات والانسان المادي تأخذه الصاعقة لأنه لم يفهم الظاهرة فهماً عقلياً ولو فهم لكانت نجاته ولكان مع الله وكل ظاهرة لها مدلولها العقلي والله ينشئ السحاب الثقال مثلاً ليكون مما تحمله من بخار الماء مطراً ينبت به الزرع وغيره ولكن الحسيين كالحيوانات لا يدركون إلا الأثر من الظاهرة ويعجزون عن التأويل والمعرفة العقلية وان ذلك ما يدعو القرآن له حيث يرتبط الانسان ببلوغه تلك المرحلة من التطور ومسئولية الأفراد أن تخرج ما جعله الله استبطاناً إلى حيز الوجود الفعلي فيكون من حياة الناس في الأرض بشارة لما ستكون حياتهم في السماء.

الناس في تلك الحياة أموات اذا ماتوا انتبهوا وهؤلاء هم الغافلون الذين يندّد القرآن بهم والذين يرفضون الروحية ويعمدون الى الرأسمالية وصراع الملكية والأموال والبنين وزخرف الحياة الدنيا من النساء والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والملايين والدولار والأخطبوط الشهوي كل ذلك لا يغني الانسان عن مصيره المنتظر.

يتصور الماديون الله على أهوائهم وينسبون له المناهج ويمترون عليه الكذب ويقولون للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً أأنتم ملحدون وما عرفوا ان الالحاد ليس انكار الوجود الالهي لأنه لا ينكر ومن قبل سألهم رسول الله عمن خلق

السموات والأرض فقالوا انه الله ولذلك لا ينكر وانما تنكر قيم الله بين أيديهم فيجعلون قيم الشيطان والابليس قبلتهم والمسألة ليست كما يقول العلماء إلا كلاماً وانما هو سلوك اجتماعي هدفه صيرورة الناس على الكافة وسورة «الزمر» تحذر الناس فتكشف لهم عن سر خطير هو أن المصير في الآخرة لن يكون مصيراً فردياً وان كان الحساب فردياً وانما سيكون المصير جماعياً وزمراً وسيكون الناس الى النار زمراً والى الجنة زمراً والمصير اذن مصير مشترك أساسه المجتمع وهذه المعلومة لم تدرس حق الدرس ولم يعتنِ بها المفكرون حق العناية. والقرآن يقول لنا في هذا الشأن إما الكل أو لا شيء ومن كان يعتقد أن الأنانية تصلح للحياة فهو واهم.

ان الرسالة السماوية ما نزلت في الأقوام ولا نزل الكتاب في الأمم إلا من أجل المجتمع حيث يصنع الانسان حياته وطفل «الآخرون» الذي وجدوه هائماً على وجهه يوضح لنا ان الانسان لا يبلغ مبلغ الادراكات العقلية السليمة إلا من خلال المجتمع وهو الذي يساعد التطور الخالق في النمو العقلي ولهذا اهتمت الرسالات بالمنهج الاجتماعي في كل الأقوام وجعلت حياة السلام والأمن هي الغاية من المنهج ليكون من الاستقرار والنمو الحضاري دفعة قوية للتطور الخالق وما بين أيدينا من بلوغ التكنولوجيا هذا المبلغ العقلي الرفيع إلا نتاجاً يقينياً لما يرجوه القرآن.

الخاتمة:

لو كان الانسان كما يبدو لنا في الأجساد لعرفنا مصيره ولكن التجربة العقلية توضح لنا غير ذلك اذ هناك بعد قوى في هذا الجسد وتلك المادة وهذه المخترعات التي يتوصل إليها العقل البشري كل يوم خير دليل على أن للانسان صيرورة تخالف ما يبدو لنا منه على أنه هذا الجسد الفاني.

والتقدير الذي نتبينه في مراحل البلوغ المختلفة وخلق الأعضاء وظهور الوظائف يحتم علينا افتراض الغاية وما هي الغاية اذن من وجود الانسان؟

يقول القرآن في سورة «سبأ» ان الموت ليس نهاية الانسان وانما هو صائر بالموت الى خلق جديد آخر فما هو الواجب اذن؟

القرآن في مواضع شتى يلفت نظر الانسان إلى وجود رب له وهذا معناه سبق خلقه على خلقه وانتفاء الفوضى ووجود النظام واحكام الخلق ﴿يَـٰأَيُّهَا الإِنسَـٰنُ انك كادح الى ربك كدحاً فَمُلَـٰقِيهِ﴾ (الآية). وهذا يستوجب أن يكون المنهج قد تم فرضه من السماء ورغم ذلك منح الانسان حرية الارادة والاختيار ليكون من ذلك فضل المؤمن وخسارة الكافر ولذلك تتبين أن القرآن يريد أن يقول لنا ان الغاية من وجود الانسان هو هذا الخلق السماوي الجديد الذي يصعد من الجسد الميت إلى رحاب الروح وعالم الملكوت.

لو تبصرنا في هذا الأمر لعرفنا الطريق الذي يريد القرآن أن نكون عليه فما هو الصراط المستقيم لتتم المعجزة؟

ان الأرض والمادة والأجساد عالم الشهادة الذي تحدث فيه الظواهر الطبيعية من الموت والحياة وغيرهما من الأضداد ليست هي الحقيقة وانما هناك عالم الغيب والميتافيزيقا والخلود في هذا العالم انما هو للانسان وحده وعلى الانسان أن يساعد في مصيره التطور ليأخذ مسئوليته بين يديه بما وهب من العقل والحكمة والإرادة الخيرة إذ لا مكان للشر وما يجلب التعاسة للناس في هذا العالم لأنه بحكم القيامة الروحية عالم الخلوص.

الماديون يكذبون بالوجود الروحي ويخلدون للأرض وما يستجلب المتع الحسية وهي لا تعرف إلا الأنانية والمظالم التي تترتب على ذلك ولهذا الأمر خطورة كبيرة على المصير المنتظر للانسان اذ يخرجه بالمنهج المادي عن جادة القيامة وبدلاً من ملاقاة الله في عالم الملكوت تكون ملاقاة الشيطان في عالم الجبروت.

تحدثنا سورة «سبأ» عن تلك المشكلة المصيرية وتقرأ لنا تاريخ داوود وسليمان

فتقول ان داوود عندما جعل الفضل الذي منحه الله للانسان من العقل والروح الخالق فيه في مصلحة الناس فإن الله ألان له الحديد وحقق على يديه ما لم يخطر على بال وأن سليمان كان له مثل ذلك حتى سخر له الله الريح وأطاع له الجبال والجن وان ذلك ليبين لنا المدى الذي يصل إليه الانسان متى استقام على الطريقة التي اختطها الله له.

لكن ما أن يبدأ سليمان في سخرة الناس خدمة لأهوائه وما يريد من ترف الحياة وجعل ما فضله الله به في الأنانية فيصنعون له التماثيل وغيرها من زينة وديكور لا مبرر له حتى يقول القرآن ان ذلك ليس عملاً صالحاً :

﴿ اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ (الآية).

وآل داوود هم أولئك الذين آل إليهم ميراث المملكة واختط سليمان للناس بعد داوود منهج الترف وكان ذلك بداية لزوال الملك الروحي الذي وضع أسسه داوود وأقام عليه ملك الله في الأرض.

فالمسألة كما يشرحها القرآن هي عبادة الانسان للترف المادي وزينة الحياة الدنيا

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ ﴾ (٣٤).

﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (٣٥).

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦).

﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ (٣٧). سبأ

والقرآن عندما يقدم قصة سليمان وسخرة الناس وحتى ظنوا انه لا يموت واستعباد الأغنياء للفقراء واستكبار أصحاب السطوة المادية انما يقول لنا ان ما يحدث في المجتمعات والصراع ليس إلا صدى لما يملك الانسان على نفسه من عشقه للترف حتى غلب سليمان نفسه وأخضعه لسطوته وان هذا الأمر جدّ خطير يحرف الناس الى الماديه ويغلبهم على أمرهم ولو كانوا ذرية للأنبياء وأعداء الايمان بالمنهج الروحي في كل قرية وفي كل أمة هم هؤلاء طبقة المترفين الذين يعبدون الشهوات والغرائز الدنيئة في النفس الطينية التي جاء الانسان منها ولا يعرف المترف مصيراً له غير ما بين يديه من المتعة والشعور الحيواني.

من ذلك نتبين خطورة تلك الطبقة وأنها طبقة استهلاكية مجال تعشقها المال والولد وكل ما يجلب لها السيطرة والقوة لكن القرآن انما يريد أن يبني المجتمعات على القوة الروحية ومجالها العدل والمساواة والاخاء الانساني والسلام العالمي.

يشير القرآن في سورة «سبأ» أن أهل سبأ متعهم الله بجنتين عن يمين وشمال ورغم ذلك لم يقتنع القوم بما بين أيديهم وطلبوا المزيد وباعدوا بين مقاصدهم فكان ذلك سبباً في تمزيق شملهم وضياع ما بين أيديهم وان ذلك خير شاهد على فساد منهج المادية، والقرآن انما يريد أن يقول لنا إن كنتم تريدون الاستقرار الاجتماعي فلا بد لكم من التعالي على الترف وكبح جماح النفس والهوى واخضاع المجتمع للقيم الروحية. لكن سورة «سبأ» تشير الى أن الأمن الاجتماعي لا يتأتى للناس إلا من خلال قراءة التاريخ ومعرفة الأسباب المؤدية الى الاستقرار للمجتمعات ولذلك كان على أهل سبأ وهم يريدون أن يصلوا الى مراتب القرى التي بارك الله فيها أن يسيروا على نهج القرى الظاهرة والتي أنعم الله عليهم بالاستقرار ولو فعلوا ذلك لعرفوا الطريقة السليمة للبناء الاجتماعي وان القرآن انما أراد من ذلك أن يقول لنا ان المنهج الاجتماعي له مشكلة كبيرة هي مشكلة الاجماع وان أهل سبأ مزقهم الله لأنهم لم يعرفوا الطريق السليمة الى هذا المنهج وكانت النتيجة افلاس المجتمع.

حرية الاختيار لا تتعارض مع سابق الفطرة والرب والمصير المنتظر في عالم الروح

وكتابة اللوح والقلم لا تمنع الانسان من ممارسة المسئولية وانما تكمن المشكلة في ضلال الانسان والترف وعشق الماديات والغفلة بالشهادة عن عالم الغيب ثم الطبقة المسيطرة ونفوذها وفرض الأنماط والقدرة وما يتبع ذلك من الانحراف العام وخير شاهد هو ضياع أهل سبأ وتمزق المجتمع وعدم وصول البناية الاجتماعية الى الغاية المنشودة.

لو كان المصير عند الرب مصيراً جماعياً لكان للشفاعة دور كبير ولحمل الأغنياء عن الفقراء مغبة العافية لكن المصير عند الرب مصير شخص فردي لا يغني والد عن ولده ولا ولد يستطيع أن يغني عن والده شيئاً. وهذا الأمر انما يكشفه القرآن ليقول لنا ان طبقة المترفين تقود المجتمع الى مصير مشئوم يلقى فيه كل فرد النتائج التي كانت مترتبة على حرية الاختيار وما تم بشأنها في حينه ومسئولية كل فرد هو خلاص روحه والمجابهة بين الفرد والجماعة انما يحكمها المنهج الروحي وليس كما يدعي الماديون والقائلون بالبيئة واشراطها والخالق كفيل للانسان عند الفطرة ملاقاة ربه حتى ولو في الجحيم.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣١).

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ (٣٢).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٣٣).

وهكذا يضع القرآن أمامنا مشكلة الفرد والجماعة والطبقة المترفة وسيطرة الأموال والأولاد وكل ما يلهي الناس عن المصير المنتظر.

ان القرآن لا يغفل عن المشكلة الكبرى التي تتمثل في النظرية الاجتماعية وصراع الطبقات واستيلاء الكفرة الماديين على أقدار الأمم والاجماع ليس له صورة مادية أبداً وقد رأينا الرأسمالية تظهر لنا في العصر بألف وجه ووجه والمترفون في كل بلد يأتون بالعجب من السلوك الفاضح للقيم والأبيقوري في العصر الحديث ليس لديه مانع من حرمان العالم كله وبقائه وحده متمتعاً وليمت الناس جميعاً وليبق «أنا» ولا يزال القرآن يتحدث عن تلك المشكلة حتى يقول لنا في سورة «الزمر» ان الانسان بالتقليد الأعمى يحدث منه سلوك القطيع بلا وعي ولا بصيرة وهذا الأمر سيكون له نتيجة حتمية في الآخرة وسنرى الناس إما يذهبون الى النار زمراً أو الى الجنة زمراً وهذا ضد المنهج الروحي والخلوص الفردي والتعالي الشخصي والمجتمع الرباني لا يحارب الترف والمترفين إلا بسبب هذا السلوك وتلك النتيجة التي يتردّى فيها الناس دون أن يكون لهم من الأمر شيء متى كان للطبقة المترفة سيطرة على أقدار الناس والتسلط الذي تمارسه تلك الطبقات في مجتمعات الرأسمالية هو خير شاهد على فرض السلوك الاجتماعي فرضاً.

اختيار المصير والإرادة الربانية وتدخل إرادة الانسان فيما يريده الله كل ذلك كان له صدى في سورة «النحل» اذ تقول السورة ان قصد السبيل قد خلقه الله وانحراف السبيل قد خلقه الانسان ولذلك تقول السورة ان الله خلق الأنعام ليكون منها للناس منافع ثم يتدخل الانسان في هذا الأمر فيتخذ من الأنعام والخيل وغيرها زينة لفرط عشقه لمسألة الترف المادي والله يضرب المثل بما خلق من الثمرات والشجر والنبات ويقول ان ذلك كله قد خلقه الله من الماء ورغم ذلك كان القصد خلف الخلقة فجاءت النتائج مختلفة ومعنى ذلك أن الله له إرادة وقصد ولا يدخل الانسان محراب الإرادة الالهية فيفسد الكائنات والقوانين والسنن. ومعنى ذلك كله سبقه وجود المنهج ولا يصح أن يخترع الماديون للناس منهجاً ولو نظر العاقل في ملكوت

الأفلاك من الشمس والقمر والنجوم وما يأتي نتيجة لذلك من الليل والنهار لعرف أن هناك خالقاً مدبراً يريد من الانسان الالتزام والنهج القويم.

لم يترك الانسان سدى وقد كان نطفة من منى يمنى لكن الماديين يريدون الفوقية والاستهلاكية والنفعية والأخطبوطية وكل القيم التي تعادي الطبقية وينكرون الشمولية لأنها ليست طبقية ولا هي ترفيه ومشكلة الانسان انه ينكر الحق ورغم أنه يعرف من خلال العلم أن الأشياء والظواهر عند التحليل تظهر مسألة الحق والباطل ولو وضع الكيميائي كمالاً يوافق الحق لما تحقق التفاعل ولما وصل العلم الى شيء.

ان ما يقوله علماء الاجتماع من غياب النظرية الاجتماعية وما نراه في المجال العالمي من التخبط في هذا الشأن ليس مرده انعدام المنهج الفطري الطبيعي من الرب انما مرده الى بناء المجتمعات على المناهج الاقتصادية وهي مادية ولا انسانية ومشكلة التوزيع هي مشكلة مفتعلة تحكمها النظم والسيطرة الطبقية والفئات والشرائع وكل مظاهر التفرقة سواء كانت عنصرية أو انتاجية أو حتى فكرية وعقائدية لا تطفح بالانسان إلا عندما يفقد المنهج الروحي فعاليته بين الناس ولا تظهر الانحرافات وتتلون وتتلوى إلا في غياب منهج الرب وما يدعو إليه من السلام والمحبة والاخاء الانساني.

لا يكسب الانسان من العناد إلا الحروب والدمار ولو سلم الانسان أمره لله واستقام على الطريقة لكان النعيم المادي والروحي بين يديه خالصاً ولكن الشياطين تحاول بشتى الوسائل والسيطرة أن يكون لها اليد العليا في مصير الانسان.

ليس معنى ذلك أن نحارب العنصرية أو المادية العلمية وما ينتج عنها من اختراعات وتكنولوجيات ولا نحارب الرفاهية ولكننا ننادي بالرفاهية للجميع وأن تسقط القيم الفردية التي تجعل من الناس أدوات للسيطرة وأن نقيم من المنهج الروحي العالمية التي وعدها الرب ابراهيم وموسى ومحمد (صلعم) وأن يكون الدين كله لله وأن نجعل من العمل والحافز الروحي قدوة ولن يكون الناس إلا أمة واحدة قيامة وجودها المصير المشترك على قدم التقوى وهي الفصل بين الأمم.

المؤلف

فهـرس